

(المحاضرات التي لم تدرس بالكلية)

المحاضرة الأولى

ج- الخانقاوات :

الخانقا كلمة فارسية تطلق على المكان الذي ينقطع فيه المتصوفة والزهاد للعبادة .

فهي إذا مقابلة للمصطلح العربي [رباط . زاوية] .

وقد نشأت الخانقاوات مع نشأت المدارس ، ونتيجة للوافق الفكري بين السنة والمتصوفة حدث وفاق معماري بين تصميم

المدرسة والخانقا .

وقد أدخل صلاح الدين الأيوبي نظام الخانقاوات لمصر ، فحول بعض الدور الفاطمية لاستخدامها لهذا الغرض ومنها خانقاة سعيد السعداء ، كما شيد عمائر خاصة للخانقاوات لتكون مقرا لمن أراد التخصص والتعمق في دراسة الدين والتفقه فيه وهداية الناس ووعظهم والزهد والعبادة ، ولم يكن كل أولئك جميعا ينقطعون للعبادة والدراسة والزهد ، بل كان بعضهم ممن يزاولون الأعمال العادية كغيرهم من الناس يعيشون منها ويخصصون جزءا من وقتهم للدراسة والتعب .

وقد انتشر بناء الخانقاوات في العصر المملوكي وتشابه تخطيطها مع تخطيط المدارس ، ولعل أشهر نموذج لها خانقاة

بيبرس الجاشنكير التي شيدت بين عامي ٧٠٦ هـ . ٧٠٩ هـ / ١٣٠٧ . ١٣١٠ م .

وكما قلنا فإن مبدأ تعدد الوظائف جعل المنشأة تجمع بين وظيفة المدرسة والخانقاة فلا اختلاف في التصميم حيث

الصحن الأوسط الذي تفتح عليه إيوانات وبين الإيوانات حجرات الطلبة في المدرسة أو خلاوي الصوفية في الخانقاة ، من

أمثلة الخانقاوات أيضا خانقاة الأمير شيخو (٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م) وخانقاة فرج بن برقوق (٨٠٣ . ٨١٣ هـ / ١٤٠٠ .

١٤١٠ م) .

وفي العصر العثماني سميت الخانقاة بالتكية وسمي أهلها بال دراويش وصاروا يؤدون طقوسا غريبة أخرجت الخانقاة عن

الهدف الأساسي من نشأتها ، كما وجد بها بعضا ممن التحق بها لا لغرض التعلم أو العبادة فقط ولكن ليتمتع بالطعام

والشراب والخيرات التي تدرها الأوقاف التي حبست على المنشأة دون أن يبذل أي عناء . ومن أمثلة التكايا في العصر

العثماني : التكية السليمانية (٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م) ، تكية السلطان محمود (١١٦٤ هـ / ١٧٥٠ م) .

٢- المنشآت التعليمية :

أ[المدارس :

ظهرت المدارس في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري . العاشر الميلادي ككيان معماري مستقل ، أما المدرسة

كوظيفة فكانت منذ القرن الأول الهجري في المساجد والزوايا والدور .

وقد ازدهرت حركة تأسيس المدارس في عصر السلاجقة وبخاصة على يد الوزير الشهير نظام الملك إذ قدم هذا الوزير

هذه الفكرة وهي تأسيس أشكال معمارية لها طابع خاص تقوم بتدريس العلوم الدينية على المذاهب السنية وذلك لمحاربة

المذهب الشيعي . مذهب الدولة الفاطمية المناوئة للخلافة العباسية السنية .

ويبدو أن المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك اتخذت طابعا معماريا متشابها ، وعلى الرغم من أننا لا نعرف على

وجه التحديد تخطيط المدارس النظامية فإنه من المحتمل أن عمارة هذه المدارس تأثرت بالإيوانات الساسانية.

ويبدو أن هذا التخطيط كان يتكون من إيوانين وضعا على ضلعين متقابلين من صحن أوسط مكشوف مستطيل أو مربع ،

أو يتكون التخطيط من أربعة إيوانات وضعت على جوانب الصحن الأوسط بواقع إيوانات في كل جانب .

ويشغل الصحن والإيوانات الجزء الأوسط من المسقط ، وتوضع في الأركان والأجزاء الباقية المحصورة بين الإيوانات والجدران الخارجية حجرات للطلبة وحواصل أي مخازن ، وخلوات أو حجرات لتصبح المدرسة منشأة قائمة بذاتها يقيم فيها الأساتذة والطلاب ، تلقى في إيواناتها الدروس ، وتتخذ الحجرات سكنا دائما طوال مدة الدراسة .

وقد عمل نظام الملك على الإكثار من بناء مثل هذه المدارس في بلاد فارس والعراق وغيرها مثل مدرسة نيشابور التي رآها الرحالة ناصر خسرو في سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٦م وهي في دور البناء ، كما بني عدة مدارس في بغداد و طوس و البصرة و أصفهان و غيرها .

وقد تأثر الأتابكة بالمدارس النظامية فنشروا الفكرة وبنوا المدارس في الموصل والرها وأربل ونصيبين ، وبنى نور الدين محمود عدة مدارس في حلب وحماه وحمص ودمشق وغيرها .

وعمل صلاح الدين الأيوبي على نشر المدارس السنية على أوسع نطاق ممكن ، ولعله قصد من ذلك أمران : الأول يتعلق بدفاعه وحماسه الدينية . والثاني سياسي يتمثل في عمله على القضاء على نفوذ المذهب الشيعي بالقضاء على بقاياها وعلى أنصاره بعد أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين وقضى على الخلافة الفاطمية الشيعية ، فأنشئت في عهد صلاح الدين وحده نحو ثلاث عشرة مدرسة ، كان بعضها في الأصل دورا ومنازل حولت إلى مدارس بدافع من اللفتة الشديدة إلى إيجاد ذلك النوع من التعليم على أساس المذهب السني في أقصر وقت ممكن .

وقد كانت تلك المدارس التي أقامها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد : إما الشافعي أو المالكي أو الحنفي ، كما أنشئ الملك الكامل مدرسته بشارع المعز لتدريس الحديث الشريف .

وكانت المدارس المصرية في العصر الأيوبي تشتمل . في الغالب . على إيوانين متقابلين بينهما صحن أوسط على جانبيه الآخرين حجرات متجاورة ، ومن المحتمل أن إيوان القبلة كان يستعمل كمسجد إذا كانت المدرسة مخصصة لمذهب واحد ، في حين يستخدم الإيوان الآخر لتدريس ، إما إذا كانت المدرسة لمذهبين فكان الإيوان القبلي يستخدم كمسجد عندما يحين وقت الصلاة فقط وكقاعة للدرس بقية الأوقات .

وقد كانت المدارس السورية لا تحتوي على مئذنة في حين احتوت المدارس المصرية على مئذنة تعلو المدخل كما يبدو في المدرسة الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م لتدرس بها المذاهب الأربعة لأول مرة في مصر ، والواقع أنها كانت عبارة عن مدرستين متجاورتين كل واحدة منهما مكونة من إيوانين متقابلين يفتحان على صحن أوسط مكشوف ، وبين المدرستين كان المدخل لهما وهو الذي تعلوه المئذنة التي مازالت باقية حتى الآن بشارع المعز بالقاهرة .

وفي العصر المملوكي انتشر بناء المدارس وظهرت في مصر لأول مرة المدرسة ذات الإيوانات الأربعة وربما كانت مدرسة الظاهر بيبرس (٦٦٠. ٦٦٢هـ / ١٢٦٢ . ١٢٦٣م) أول نموذج لهذا الطراز والتي مازالت بعض بقاياها بمنطقة النحاسين بشارع المعز بالقاهرة .

ومع بداية العصر المملوكي صدرت فتوى بجواز إقامة صلاة الجماعة في أكثر من مسجد في المدينة الواحدة وبالتالي أقيمت المدارس وجمعت في وظيفتها أيضا وظيفة المسجد الجامع ووضع المنبر بجوار المحراب بإيوان القبلة .

وقد أمدنا العصر المملوكي بمجموعة كبيرة من المدارس تمثل فيها الجمال والدقة والإبداع المعماري ، ولعل من أهم هذه المدارس مدرسة السلطان حسن بميدان القلعة (٧٥٧ . ٧٦٤هـ / ١٣٥٦ . ١٣٦٢م) والتي تشتمل على أربعة إيوانات متقابلة تكون تخطيطا متعامدا ، والإيوان الجنوبي الشرقي " إيوان القبلة " هو أكبرها ويحتوي على المحراب والمنبر ويتوسط هذه الإيوانات الأربعة صحن مكشوف به قبة الفسقية أو الميضأة .

وهناك مدارس أخرى شهيرة تنتمي لهذا العصر كمدرسة برقوق بشارع المعز (٧٨٦ . ٧٨٨ هـ / ١٣٨٤ - ١٣٨٦ م) ومدرسة قايتباي بجبانة المماليك (٨٧٧ . ٨٧٩ هـ / ١٤٧٢ . ١٤٧٤ م) ومدرسة قانباي الرماح بميدان صلاح الدين ومدرسة الغوري بالغورية (٩٠٩ . ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ . ١٥٠٥ م) وغيرها العديد من المدارس المملوكية .

وقد تميزت المدرسة في ذلك العصر . كما سبق أن ذكرنا . أنها جمعت بين أكثر من وظيفة ، فقد كانت مدرسة ومسجد جامع ، كما يمكن أن تكون خانقاة ، وألحق بها قبة ضريحية عادة للذي أمر بإنشائها ، كما احتوت على سبيل لسقي الماء يعلوه كتاب لتعليم أطفال المسلمين .

وكان المعماري يلجأ أحيانا في حالة المدرسة ذات الحجم الصغير إلى تغطية الصحن الأوسط بسقف مسطح يتوسطه شخصخة .

ومن مصر انتقل نظام المدارس إلى بلاد المغرب واشتقت المدرسة المغربية تصميمها من عمارة الأربطة إذ كانت تتألف من صحن مركزي يتوسطه حوض ، وتحيط به من الشمال والشرق والغرب غرف صغيرة ضيقة أعدت لإقامة الطلبة ، أما الجهة القبلية التي كانت تقع عادة في مواجهة المدخل الرئيسي فكانت تشتمل على المصلى ، وكانت ذات أسقف هرمية ، كما احتوت المدرسة المغربية على مئذنة مثل المدارس المصرية غير أنها اختلفت عن المدارس المصرية والسورية في عدم احتوائها على ضريح .

وفي شرق العالم الإسلامي أسس المغول بعد اعتناقهم الإسلام مدارسهم على طراز المدارس السلجوقية ، وكانت المدارس المغولية تخصص غالبا لمذهبين وهو ما أدى إلى ظهور عمارة المدرسة المزدوجة .

والواقع أن دور المدرسة في العالم الإسلامي لم يقتصر على تدريس العلوم الدينية فقط بل في كثير من الأحيان كانت تدرس بها العلوم الطبيعية من طب وكيمياء وفلك ورياضيات وغيرها .

مدرسة السلطان حسن

إن حق لمصر الفرعونية أن تفخر بأهرامها فإن لمصر الإسلامية أن تتباه عجا بمدرسة السلطان حسن التي لا يعادلها بناء آخر في الشرق بأجمعه ، فقد جمعت شتى الفنون فيها .

الموقع : تقع مدرسة السلطان حسن أسفل ميدان القلعة ومواجهة لها ، وكان هذا الموقع قديما يعرف بسوق الخيل ، وكان به قصرا أمر بإنشائه الناصر محمد بن قلاوون لسكنى الأمير يلبيغا اليحايوي ، وقد بقى هذا القصر حتى أمر بهدمه الناصر حسن وأنشأ في موضعه تلك المدرسة .

المنشئ : هو السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ولد سنة ٧٣٥ هـ وتولى حكم مصر سنة ٧٤٨ هـ وعمره ثلاث عشرة سنة ، وتم اقصائه عن الحكم سنة ٧٥٢ هـ واعتقل في الدور السلطانية وعين أخيه الملك الصالح صالح مكانه .

ثم أعيد السلطان حسن مرة أخرى للحكم سنة ٧٥٥ هـ وفي هذه المرة انفرد بالحكم وكثر اتباعه ومماليكه . ومن أجل تغير الجو بالقاهرة خرج مع مماليكه إلى ضواحي الجيزة وأقام بها ثلاثة أشهر ، وفي هذه الفترة اشتدت الفتنة بينه وبين الأمير يلبيغا الخاصكى ، وحاول السلطان الفتك به لكنه لم يوفق ، فهاجمه يلبيغا في القلعة فهرب السلطان حسن ، ثم قبض عليه ومن معه جهة المطرية وذلك سنة ٧٦٢ هـ وكان هذا آخر العهد به فلم يعرف مصيره بعد ذلك ، وقيل أنه خنق وألقي في البحر ، ولم يعرف له قبر .

تاريخ الإنشاء : بدأ السلطان حسن في بناء تلك المدرسة الرائعة سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م وعني بها عناية شديدة واستمرت العمارة جارية بها مدة حياته وكان يصرف عليها بسخاء عظيم .

وقد احتفل السلطان حسن بافتتاح مدرسته تلك وصلى بها الجمعة وأنعم على البنائين والمهندسين وأقيمت بها الدروس وحرر لها وقفية مؤرخة بشهر رجب سنة ٧٦٠هـ ورصد عليها وعلى غيرها عقارات وأراضي ، وعين بها الموظفين والقراء ، وفرشها وعلق بها الثريات والمشكاوات الجميلة وعين لها إمام حيث كانت تقوم كذلك بوظيفة المسجد الجامع .

غير أن المدرسة لم تكن قد انتهت عمارتها تماما عند مقتل السلطان حسن سنة ٧٦٢هـ فقد بقي بها بعض الأعمال التكميلية كإتمام بناء القبة الكبيرة وأعمال الرخام في الحوائط والأرضيات وإتمام القبة الخشبية بالصحن الأوسط وهي الأعمال التي قام بها الطواشي بشير الجمدار وذلك حسب ما هو موجود بالنصوص التأسيسية الكثيرة بالمدرسة .

تاريخ المدرسة : تعرضت مدرسة السلطان حسن للعديد من المحن لوقوعها أمام قلعة الجبل فكثيرا ما كانت تنشب الثورات والفتن بين المماليك بعضهم البعض فكان الثائرون عادة على السلطان بالقلعة يلجئون إلى التحصن بمدرسة السلطان حسن وينصبون المدافع والمكاحل فوق مئذنتها ويقذفون القلعة منها ، وكان المماليك بالقلعة يردون على تلك العمليات بضرب المدرسة ومآذنها التي يتحصن بها الثائرون ، ومن هذه الأحداث ما وقع سنة ٧٩١هـ حيث رمى المماليك من فوق المدرسة باب السلسلة بالمكاحل فأمر الظاهر برقوق سنة ٧٩٣هـ بهدم السلاسل الموصلة لسطح المدرسة حتى لا يتكرر ذلك ، ثم أعيد إصلاحها سنة ٨٢٥هـ وركب باب جديد للمدرسة بدلا من الباب الأصلي الذي استولى عليه المؤيد شيخ ووضعه في مسجده أمام باب زويله .

وقد تكررت تلك الأعمال من ضرب القلعة من مدرسة السلطان حسن في عهد جقمق فهدم السلاسل الموصلة إلى المنارة سنة ٨٤٢هـ ، وفي سنة ٩٠٢هـ حدثت نفس الأعمال فقبول الاعتداء بالمثل وصويت المكاحل من أعلى القلعة إلى مدرسة السلطان حسن فأصابته بأضرار جسيمة رممها بعد ذلك الأمير طومانباي الدوادر سنة ٩٠٣هـ .

ثم أمر الملك العادل طومانباي بترميم جميع ما أفسد من جدران المدرسة في مدة محاصرة القلعة .

التخطيط العام :

وضع تخطيط مدرسة السلطان حسن على النظام الإيواني حيث تتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربعة إيوانات أكبرها وأعمقها إيوان القبلة والذي تقع أمامه القبة الضخمة التي كان قد أمر بإنشائها السلطان حسن ليدفن فيها ، وفي الأركان الأربعة للمدرسة بين الإيوانات بنيت مدارس فرعية للمذاهب الأربعة ومسكن للطلبة ، كما ألحق بالمدرسة في الجهة الغربية دورة مياه وساقية وبعض الوحدات الخدمية [شكل ٩] .

الوصف المعماري :

الشكل العام للمدرسة يصعب تحديده فهو غير منتظم ، كثير الأضلاع لكنه أقرب إلى الشكل المستطيل ، وتبلغ مساحة المدرسة ٧٩٠٦ متر مربع ، وأكبر طول لها ١٥٠ متر وأقصى عرض ٦٨ متر ، ولها أربع واجهات حرة .

الواجهة الجنوبية الشرقية هي واجهة القبلة [شكل ١٠] وبها بروز القبة في الوسط وفي ركني الواجهة مئذنتان واحدة في كل ركن ودخلتان بهما شبابيك إحداها تطل على المدرسة الحنفية والأخرى على المدرسة الشافعية .

أما شبابيك القبة فقد حليت أعتابها بمقرنصات ، كما زخرفت بقطع من الخزف .

والواجهة الجنوبية الغربية تطل شبابيكها على الإيوانات والحجرات الملحقة بمدرستي الحنفية والحنابلة والإيوان الجنوبي الغربي للمدرسة .

أما الواجهة الشمالية الغربية فبأسفلها دورة المياه وأمامها الساقية التي كانت توصل المياه إلى المدارس الملحقة وإلى المدرسة الرئيسية بواسطة مجرة على كوابيل بالجهة الجنوبية الغربية .

والواجهة الرئيسية للمدرسة هي الواجهة الشمالية الشرقية حيث يقع بها المدخل الرئيسي في الركن الشمالي وهو مدخل تذكاري بارز يعد من أضخم المداخل في العمارة الإسلامية حيث يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٨ مترا ويبدأ من أسفل بسلم بطرفين

يلتقيان في بسطة ، ثم نجد حجر غائر على جانبيه مكسلتان وفي وسطه فتحه باب الدخول يغلق عليها باب ذي مصراعين ، والباب الأصلي للمدرسة استولى عليه المؤيد شيخ ، ويعلو فتحة باب الدخول فتحة شبك علوية ثم يتوج هذا الحجر الغائر طاقية مقرنصة ضخمة ، ويخرف هذا المدخل وعضديه أشرطة ووزرات رخامية غاية في الجمال تحتوي على زخارف كتابية ونباتية وهندسية تمثل قمة الذوق الفني في النقش على الأحجار .

والشبابيك في الواجهات موضوعة على هيئة مستويات رأسية في دخلات متوجة بمقرنصات .

كما يتوج الواجهات من أعلى إطار من المقرنصات ذات الدلايات في خمس صفوف تبرز للخارج .

أما من الداخل : فبعد الدخول من المدخل الرئيسي بالركن الشمالي نصل إلى دركاة مربعة مغطاة بقبة ، بالجهة اليسرى منها فتحة باب تؤدي إلى ممر منكسر يتوصل منه إلى الصحن الأوسط وإلى ملحقات المدرسة التي تقع بالجهة الشمالية الغربية .

والصحن الأوسط مكشوف مساحته ٣٤.٦٠ × ٣٢ مترا يتوسطه فسقية تستخدم الآن كميضأة تعلوها قبة محمولة على

ثمانية أعمدة مكتوب بدائرها آية الكرسي وتاريخ الفراغ منها .

ويفتح على الصحن أربعة إيوانات أكبرها وأعماقها إيوان القبلة وهو إيوان كبير لا نظير له في سعته وارتفاعه إذ تبلغ فتحته ١٩.٢٠ متر ويدور على جدرانها إفريز من الجص مكتوب عليه بالخط الكوفي على أرضية نباتية آيات من سورة الفتح .

ويتوسط هذا الإيوان دكة للمبلغين من الرخام محمولة على أعمدة رخامية ، ويجدار القبلة للإيوان حنية المحراب وهي حنية نصف دائرية يكتنفها أربعة أعمدة رخامية عمودان على كل جانب ، وكسيت حنية المحراب بوزرات رخامية رائعة ، وعلى يمين المحراب يوجد المنبر .

وعلى جانبي المحراب والمنبر بابان يؤديان إلى القبة التي تقع خلف المحراب .

وحجرة القبة مربعة طول ضلعها ٢١ مترا وبها محراب من الرخام محلى بزخارف دقيقة وكسيت جدرانها بوزرة رخامية بارتفاع ثمانية أمتار يعلوها إفريز خشبي به كتابة بارزة تحتوي على آية الكرسي وتاريخ الفراغ من بنائها. يعلو ذلك شبابيك من الجص المعشق بالزجاج الملون وفي أركان الحجرة من أعلى مقرنصات خشبية مجلدة بالذهيب والألوان ، أما خوذة القبة فهي ليست أصلية إذ أن القبة الأصلية كانت من الخشب المكسو بالرخام .

وبأركان الصحن الأوسط أبواب تفضي إلى المدارس الفرعية للمذاهب الأربعة وتتكون كل مدرسة من صحن تتوسطه فسقية وإيوان ثم حجرات في أدوار عدة تشرف على الصحن وعلى الواجهات وهي مخصصة للطلبة.

مهندس المدرسة : كانت شخصية هذا المعماري الذي أتم هذا البناء الضخم تكتنفها الغموض حتى تم الكشف عن اسمه في الكتابات الجصية بالمدرسة الحنفية وهو " محمد بن بيلبك المحسني " وقد كان من الأمراء الكبار في دولة السلطان حسن .

ب- الكتاتيب :

إذا كانت المدارس هي معاهد الدراسات العليا والمتخصصة فقد عرف العالم الإسلامي معاهد تعليم الأطفال والصغار من الذكور والإناث مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وقد اصطلح على تسميتها بالكتاتيب .

وفي مصر انتشر بناء الكتاتيب فوق الأسبله في العصر المملوكي ، إذ قلما نرى في هذا العصر سبيل لا يعلوه كتاب . وكان هذا الكتاب الذي يعلو السبيل يقع فوق حجرة التسييل أي أنه دور علوي وقد أخذت مساحته نفس مساحة الحجرة السفلية في حين كانت واجهة الكتاب ترتكز على أعمدة ، ولمنع الأطفال من السقوط كان يعمل حجاب من خشب الخرط أو من الرخام بارتفاع كاف ليضمن سلامة هؤلاء الصغار ، كما كان السقف مسطحا يتدلى منه على هذه الواجهات رفرف خشبي مائل ليحمي الأطفال من حرارة الشمس صيفا ومن المطر شتاء .

وفي العصر العثماني أصبح الكتاب غالبا مستقلا تخصص له مساحة خاصة بجوار مسجد أو مدرسة .

٣- العمائر الجنائزية :

نعني بالعمائر الجنائزية هي تلك المتعلقة بالإنسان حال وفاته. ولعل أشهرها في الآثار الإسلامية :

الأضرحة (القباب) : وردت بعض الأحاديث الشريفة تنهي عن البناء فوق القبور ، فيما لم يرد نص قرآني صريح ينهي عن ذلك وبالتالي فهناك نقاش حول مدى صحة هذه الأحاديث وهذا ما دعى البعض إلى القول بأن البناء المقام فوق القبر محرم ، بينما احتج البعض الآخر بأن الرسول الكريم دفن في حجرة السيدة عائشة وهي مكان له جدران فوق الأرض لكن ينبغي علينا هنا أن نعي أن للرسول دائما خاصية غير بقية المسلمين كما أن الأنبياء يدفنوا حيث يموتوا . والنقاش في هذا الموضوع لا يدخل في إطار بحثنا إذ له رجاله (علماء الدين) المختصين بهذه الأمور .

وما يعيننا أن نعرف أنه حدثت توسعة للمسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك وأشرف عليها عمر بن عبد العزيز وفيها أدخلت حجرات النبي داخل مساحة المسجد وبالتالي دخلت حجرة عائشة المدفون فيها النبي صلى الله عليه وسلم وأقيمت حولها جدران من خمسة أضلاع حتى تتميز عن الشكل المربع للكعبة المشرفة ، وأقيمت فوق حجرة الرسول (الروضة الشريفة) قبة في العصر المملوكي .

وربما كان أول ضريح يصلنا أخباره في الإسلام . غير روضة الرسول . هو ضريح الخليفة العباسي المستنصر والذي يعرف بقبة الصليبية بالعراق .

ومنذ عهد نور الدين محمود ٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٣م صارت المدارس السورية تشتمل على ضريح مؤسس المدرسة ، وانتشر ذلك في العصر الأيوبي وزاد انتشاره في عصر المماليك حتى أننا قلما نجد منشأة سواء مسجدا أو مدرسة أو خانقاة أنشئت في عصر المماليك دون أن يلحق بها قبة ضريحية ، بل وجدت كذلك القباب الضريحية المستقلة عن المنشآت والقائمة بذاتها حتى حدث خلط بين القبة والضريح وصار لفظ القباب مرتبطا بالأضرحة والمدافن .

وانتشر بعد ذلك اتخاذ الأضرحة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ولاسيما في وسط آسيا والهند حيث أقيمت قباب ضريحية ذات طابع معماري فخم ، ومن هذه الأضرحة ضريح إسماعيل بن نصر الساماني في بخاري ، وضريح تيمورلنك في سمرقند ، وضريح أولغ بك في غزنة وضريح تاج محل في أكر بالهند ، ومقابر الأئمة الزيدية في صعدة باليمن .

وقد تكونت معظم القباب الضريحية في مصر من قسمين رئيسيين : الأول أسفل الأرض ويسمى الفسقية وهو خاص بعملية الدفن ويتوصل إليه من سلم هابط له فتحة علوية في القسم العلوي ، وفي القسم السفلي يوجد للحد أو الضريح أو القبر ، كما قد يحتوي أحيانا على محراب في جهة القبلة .

القسم الثاني : فوق سطح الأرض ويتكون من حجرة مربعة تعلوها قبة وبالحجرة المربعة نجد المدخل وكذلك محراب أو أكثر في جدار القبلة ، كما قد تحتوي على تركيبه خشبية أو رخامية لتعيين مكان الدفن في أسفل ، وكذلك تحتوي على فتحة للسلم الهابط للفسقية .

أما القبة فتعد من الناحية الأثرية والمعمارية أهم شيء في الضريح إذ من تتابع هذه الأضرحة أمدتنا بسلسلة متصلة لتطور أشكال هذه القباب وزخارفها وكذلك تطور مناطق الانتقال .

وتتكون القبة عادة من : منطقة الانتقال وهي المنطقة التي يتم تشكيلها لتحويل الجدران المربعة لحجرة القبة إلى جدران

مثمثة ثم دائرية تقام عليها القبة.

وهناك أشكالا عديدة لمناطق الانتقال أهمها :

١ - المثلثات الكروية : وهي مقتبسة من العمارة البيزنطية وأقدم مثال لها في العمارة الإسلامية في قبة حمام قصير

عمره بالأردن .

٢ - الحنايا الركنية : عرفت في العمارة الساسانية وأقدم نموذج لها في العمارة الإسلامية في قصر الأخضير في العصر العباسي وكذلك في قبة الصليبية بـ سامرا ، ووجدت في مصر في قباب السبع بنات من العصر الفاطمي وكانت تتكون من حطة واحدة ثم حدث تطور لها مع الزمان إلى أن وصلت إلى خمس صفوف (حطات) من هذه الحنايا مقامة فوق بعضها البعض مثلما نجد في القبة الملحقة بمدرسة صرغتمش وقبة بيبرس الجاشنكير وهما من العصر المملوكي البحري .

٣ - السراويل المقرنصة : وهي ما نطلق عليها المقرنصات أو السراويل الحلبية حيث أنها عرفت في حلب ثم انتقلت إلى دمشق ومنها إلى مصر في أواخر القرن السابع الهجري وعرفت أولا في المداخل ثم انتقلت إلى مناطق الانتقال في القباب ، وتمثل هذه المقرنصات التطور الذي أحدثه الفكر المعماري أو الإسلامي وهي تشبه الهرم المقلوب حيث الرأس أسفل والقاعدة أعلى وتبدأ أسفل بحطة أو صف عبارة عن حنية صغيرة أو بروز صغير واحد ثم الصف العلوي اثنان يبرزان عن السفلي ويرتكزان عليه وعلى الجدران والصف الثالث ثلاث حنايا صغيرة ترتكز على الصف الثاني وعلى الجدران وتبرز عنه وهكذا حتى وصل الأمر في بعض الأحيان إلى ١٣ حطة كما في قبة الغوري بالقاهرة .

يلي منطقة الانتقال رتبة القبة إذ أنه بعد تمام منطقة الانتقال يتحول المربع السفلي إلى مثن فيستطيع المعماري أن يحدث شكلا دائريا على هذا المثن وهو ما يسمى برتبة القبة .

وفوق هذه الرتبة تتركب خوذة القبة والتي تأخذ الشكل المطلوب فقد تكون بصلية الشكل كما في معظم قباب الهند أو تكون مدببة القطاع كما في أغلب القباب المصرية .

وقد تكون الخوذة مجردة من الزخارف أو تزخرف بالأشكال المطلوبة والتي منها القباب المفصصة أو المضلعة ، الزخرفة بالدالات أو الزخرفة الزجاجية التي تسمى موج البحر والتي سادت في العصر المملوكي ، والزخرفة بالزخارف النباتية أو الهندسية أو بهما معا وهناك أمثلة رائعة لذلك أشهرها القبة الملحقة بمدرسة قايتباي بجبانة المماليك ، أو تزخرف هذه القباب بأن تكسى بالبلاطات الخزفية .

النوع الثاني : العمارة المدنية :

العمائر المدنية هي تلك المتعلقة بالحياة المدنية اليومية للإنسان ، يمارس فيها الإنسان أنشطته المعتادة ففيها يسكن وفيها يتاجر أو يعمل وفيها يعالج إذا مرض ، وبالرغم من كثرة هذه العمائر على مر العصور الإسلامية إلا أن ما وصلنا منها قليل بالمقارنة بالعمائر الدينية وذلك يعود إلى سنة التطور والرغبة في تجديدها دائما فكثيرا ما يلجأ الإنسان إلى هدم منزله مثلا ويعيد بناءه .

وعلى ذلك فإن هذه العمائر المدنية نمط تالي في الأهمية للعمائر الدينية ، كما أنها لا تحظى بالقدسية التي تحظى بها العمارة الدينية ، وعادة تكون ملكية خاصة يتصرف فيها صاحبها كيف يشاء فيقوم بهدمها وإعادة بناءها دون تدخل من أحد ، عكس العمائر الدينية التي لا يمتلكها أحد بل ينتفع بها المسلمون جميعا وتحظى برعايتهم جميعا .

١ - عمائر سكنية :

وهي تلك النوعية من العمائر المدنية التي يأوى إليها الإنسان ويستقر بها حيث أن السكن له مدلولات عديدة تدور كلها حول معاني الاستقرار وما يحقق للإنسان الأمن والراحة والهدوء .

وبناء على ذلك فالعمائر السكنية تعد الملجأ الأخير الذي يركن إليه الإنسان بعد أن ينتهي من كل أعبائه ومتعلقاته الحياتية والدينية ، ولذلك يحرص كل إنسان على إضفاء جو من الجمال والهدوء على المكان الذي يستقر فيه ، ومن هنا كان الاهتمام دائما ينصب على داخل المنشأة سواء من حيث التأنق الزخرفي أو الأثاث والمتاع كل حسب إمكانياته .

وقد كانت العمائر السكنية أكثر نوعيات العمائر على الإطلاق انتشاراً ولكنها كذلك كانت أكثرها تعرضاً للهدم والانحلال ، إذ أن تغير المفاهيم والأذواق من وقت إلى آخر كان يصاحبه دائماً إجراء عمليات إحلال وتجديد وتغيير للمنشأة .
والحقيقة أن للعمائر السكنية مصطلحات كثيرة يضيق المقام عن الخوض في مدلولاتها ، غير أننا سنستخدم المصطلحات المتعارف عليها حالياً حتى لا يحدث خلط بينها .

(أ) القصور :

نعنى بها تلك المباني التي أقيمت ليسكن بها الحكام والأمراء وأفراد الطبقة العليا من المجتمع .
فبعد الحياة البسيطة التي كان يحياها النبي في حجراته وحياة الخلفاء الراشدين بدأت القصور الفخمة تظهر في الدولة الأموية حيث وصلتنا بعضاً من هذه القصور الأموية والتي يبدو فيها التحصن الشديد حتى أنها تبدو حصناً أكثر من كونها قصوراً ، وهي متأثرة في ذلك بالحصون التي كانت تمثل قصوراً في نفس الوقت والتي كانت منتشرة بشبة الجزيرة العربية خاصة في مملكتي الحيرة والغساسنة وفي قصور اليمن .
ومن هذه القصور الأموية قصر المشتى وقصر الطوبة ببادية الشام وينسبان إلى الوليد الثاني حوالي عام ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م [شكل ١١ ، ١٢] .

وقصر المشتى يقع على بعد ٢٠ ميلاً جنوب شرق عمان ، وهو قصر غير تام البناء مستطيل التخطيط يبلغ طوله حوالي ١٠٠ متر ، شيدت مبانيه الداخلية بالطوب على قاعدة من الحجر أما سوره الخارجي فكان من الحجر ، وبهذا السور أبراج يبعد الواحد عن الآخر ١٩ متراً وقطره ٥.٢٥ متراً ويزخرف الواجهة الجنوبية . واجهة الداخل . زخارف حجرية على هيئة مثلثات ما بين معتدلة ومقلوبة وفي وسط كل منها حفر بارز على شكل وردة ، وتظهر بوضوح في هذه الزخارف الجمع بين الأساليب البيزنطية والهلينية والقبطية وهي السمة التي ميزت الفن الإسلامي في بداية نشأته حيث تأثر بفنون الحضارات الأخرى .
ويقع مدخل القصر بين برجين تخطيط كل منهما على هيئة نصف مثنى ، ويؤدي هذا المدخل إلى ردهة يحف بها حجرات من طابقين وفي شرقيها مسجد به محراب ، وتفضي هذه الردهة إلى فناء ومنه إلى فناء آخر أكثر اتساعاً يتوسط القصر وتقع خلفه قاعة العرش .

وقد صممت قاعة العرش على شكل ثلاث حنيات نصف دائرية تتقدمها قاعة بازيليكية الطرز ويلاحظ أن هذا التصميم لقاعة العرش متأثر بالنظام البازيليكي البيزنطي .
وعلى جانبي قاعة العرش وحدات سكنية عبارة عن صالة مستعرضة عمودية على قاعة العرش في كل جانب يفتح عليها من الجهات الشمالية والجنوبية حجرات متداخلة .
ونلاحظ التماثل في تصميم قاعة العرش والوحدات السكنية على جانبيها .

واستمر هذا الاهتمام بتحسين القصور في العصر العباسي الذي وصلنا منه نموذجاً لذلك هو قصر الأخضر الذي يقع في وادي عبيد على بعد ١٢٠ كيلو متر جنوب بغداد ، وينسب هذا القصر إلى الأمير عيسى بن موسى بن عبد الله حوالي سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م ويرجعه البعض إلى ما قبل الإسلام [شكل ١٣] .

ولهذا القصر سور أبعاده ١٧٥ × ١٩٩ متراً ويشتمل في كل من وجهاته الأربع على مداخل محصنة ، وبالأركان الأربعة للسور أربعة أبراج على هيئة ثلاثة أرباع دائرة وفي كل ضلع هناك عشرة أبراج كما زود السور بفتحات لإلقاء المواد الكاوية على المهاجمين .

وتقع البوابة الرئيسية في الضلع الشمالي وهي تفتح على دهليز يؤدي إلى فناء القصر ويسمى ساحة الشرف ويلصق القصر نفسه السور الشمالي وتبلغ أبعاده ١١١.٤٠ × ٨١.٨٣ متراً ، وفي جنوب ساحة الشرف تقع قاعة العرش على محور المدخل الرئيسي وترتفع واجهتها عن واجهة الحجرات الجانبية وتنقسم إلى ثلاث مستويات .

أما تصميم قاعة العرش فهو عبارة عن إيوان كبير مغطى بقبو في نهايته قاعة مربعة التخطيط ويحيط بها حجرات ويدور حول الجوانب الأربعة لساحة الشرف وقاعة العرش وحجراتها دهليز يوجد حوله أربعة بيوت لا صلة بينها يلاحظ في تصميمها أن كل اثنين منهما متشابهان.

وفي الركن الشمالي الغربي من القصر يوجد المسجد ومحرابه على هيئة تجويف مستطيل . وللقصر ملحقان يقعان بين جدران القصر والسور .

ويلاحظ في قصر الأخيضر بصفة عامة التحصين الشديد ، والتصميم المتقن ، وتنوع طرق تسقيفه ، وكذلك التأثير بالأساليب الساسانية في البناء والزخارف .

وقد احتوت الكتب والمؤلفات القديمة على أوصاف العديد من القصور الفخمة للخلفاء والحكام والأمراء إلا أن هذه القصور لم تصل إلينا .

ومن القصور التي أسهب المؤرخون في وصفها قصر الميدان الذي شيده أحمد بن طولون بمدينة القطائع ، وحديقته الغناء التي احتوت أنواعاً عديدة من الأشجار والرياحين ، وكيف جعل الماء ينساب في جنباتها ويخرج من الأشجار والنخيل التي كسيت بالنحاس ، وكذلك الكتابات التي سجلت على الأرض عن طريق الزروع المختلفة الأشكال والألوان .

هذا إلى جانب حديقة الحيوان التي احتواها القصر في عهد خماروية بن أحمد بن طولون ، وحوض الذئبق الذي ينام فوقه ، فقد روى أن خماروية اشتكى من أرقه وقلته نومه فأشاروا عليه بأن يصنع حوضاً ويملاه زئبقاً ويضع فوقه فراش من المطاط وينام فوقه ليستمتع بنومه .

ثم نصل إلى قصور القاهرة الفاطمية حيث احتوت القاهرة في مرحلة نشأتها على قصرين كبيرين ملكيين في وسط المدينة تقريبا هما القصر الشرقي والقصر الغربي ، وقد بنى هذان القصران على مساحة كبيرة من المدينة ليعبرا عن الطبيعة الملكية لها فقد كانت مساحتها تمثل ٢٥% من مساحة المدينة كلها ، ولنستطيع أن نتخيل مدى اتساع هذين القصرين نذكر أن القصر الشرقي الكبير كان يدخل في مساحته المشهد الحسيني وبيت القاضي وخان الخليلي والمدارس الصالحية ويمتد شمالاً حتى الجامع الأقمر ويمتد جنوباً حتى تجاه شارع الصناديق حالياً ، وقد احتوى هذا القصر على أربعة آلاف حجرة وبه تسعة أبواب أعظمها باب الذهب الذي شيد من الذهب الخالص وكان موقعه في مواجهة مستشفى قلاوون للرمم حالياً .

وقد كان القصر الشرقي مقر الخلافة والدواوين وخزائن الكتب والسلاح والجواهر وغيرها وبلغت مساحته ٦٣ فدانا وطوله ٧٥٠ متراً تقريبا وعرضه ٣٥٠ متراً .

أما القصر الغربي الصغير فكان يمتد من سبيل السلحدار حتى أول الصاغة جنوباً ويشغل موضعه الآن مجموعة قلاوون كلها ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون ومدرسة السلطان برقوق وغيرها وهن جميعاً منشآت ضخمة ، بل إن بيمارستان قلاوون كله كان قاعة واحدة من قاعات القصر والتي اعتمدت في تخطيطها على الفناء الأوسط المكشوف الذي تتعتمد عليه أربعة إيوانات ، وقد كانت مساحة هذا القصر حوالي ٣٠ فدان ويطل على البستان الكافوري الذي كانت مساحته حوالي ٣٥ فدان .

وبتشديد القلعة ونقل مقر الحكم لها بدأ الاهتمام ببناء القصور الفارهة يقل نوعاً ما عن ذي قبل فقد سكن السلاطين والحكام منذ الكامل الأيوبي مروراً بالعصر المملوكي والعثماني ثم أسرة محمد على حتى الخديو إسماعيل بقلعة الجبل حتى نقل إسماعيل مقر الحكم إلى قصر عابدين سنة ١٨٦٧ م .

غير أن هذا لم يمنع الأمراء من بناء قصور لهم داخل مدينة القاهرة ، وكان هناك اهتمام كبير بزخرفتها ، وقد امتازت هذه القصور بمداخلها المنكسرة وتعدد الحجرات والممرات بها ، وتعدد الوحدات المعمارية وتكرار العديد منها ، واحتوائها على كافة الوحدات والعناصر اللازمة لممارسة كافة الأنشطة اليومية والدينية بما فيها الصلاة .

وخير مثال على ذلك قصر بشتاك من العصر المملوكي البحري والذي يأخذ الطبيعة الدفاعية نوعا ما بارتفاع حوائطه ومئاته ومعالجته معماريا ليحقق الأمن والأمان لساكنيه في ظل التنافس بين الأمراء ، ونلاحظ أن القصر يتكون من وحدات تربط بينها ممرات متعرجة.

أما العصر العثماني في مصر فتتميز قصوره بحدائقها الغناء حيث أقيمت القصور للأمراء المماليك " البكوات " والولاء وكبار قواد الجند حول البرك المائية وعلى الخلجان والمحاور المائية بمدينة القاهرة ، وكما يظهر في صور كتب الرحالة وكتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية فقد كانت هذه القصور غاية في الفخامة تتميز بتأثرها بالوحدات والعناصر المعمارية الإسلامية وكذلك زخارفها الرائعة التي تجمع بين الأسلوب المصري المتوارث والزخارف بالبلاطات الخزفية ذات الطابع العثماني .

وفي القرن التاسع عشر . أسرة محمد علي . غزت الطرز المعمارية الأوروبية العمارة المدنية في مصر ومنها عمارة القصور ، حيث شيدت القصور في عهد محمد علي على نمط القصور العثمانية كقصر طوبقابوسراي باستانبول الذي يعتمد في تصميمه على الوحدات المعمارية المتناثرة داخل حديقة واسعة المساحة وهو ما وجد في مصر في قصر محمد علي بشبرا وبعد ذلك قصر الأمير محمد علي توفيق بالمنيل (قصر المنيل) ، أيضا تأثرت عمارة القصور بنمط عثماني آخر هو نمط القصر ذي الأجنحة حيث الصالات الواسعة التي تطل عليها من أطرافها حجرات مثلما نجد في قصور محمد علي قصر الحرم وقصر الجوهرة بالقلعة بالقاهرة وقصر رأس التين بالإسكندرية ، وقد شاعت في عمارة هذه القصور الزخارف العثمانية الطراز ، وقد عرف طراز هذه القصور المتأثرة بالقصور العثمانية سواء من حيث الفكرة التصميمية أو مواد البناء وطريقة الإنشاء وأسلوب الزخارف بالطراز الرومي .

وفي عهد خلفاء محمد علي صممت القصور على غرار القصور الأوروبية وذلك في إطار رغبة هؤلاء الحكام وخاصة الخديو إسماعيل في صياغة المجتمع المصري ليسير وفق الأساليب الأوروبية ، ومن أهم هذه القصور قصر عابدين وقصر القبة وسراي الجزيرة بمدينة القاهرة وكلها جاءت سواء من حيث مواد البناء أو التصميم أو طراز الواجهات على نمط قصور أوروبا في القرن التاسع عشر ، وأنشئت بواسطة مهندسين أوروبيين.

ب- البيوت :

للبيت معاني عديدة ، ونقصد به هنا مساكن الطبقة الوسطى من المجتمع ، وهذه الطبقة في الأحوال العادية هي الغالبية العظمى من أفراد المجتمع ، ويختلف حجم البيت وما يحتويه من أثاث وزخارف تبعا لحجم الأسرة ومدى قدراتها المالية. ويبدو من بقايا المساكن في العالم الإسلامي أن البيوت في بداية العصر الإسلامي كانت تبنى وفق نموذجين : الأول : شامي (سوري) ، والثاني : عراقي (حيري)

والنموذج الأول : السوري أو الشامي يتمثل في الوحدات السكنية في قصر الطوبة وهو يتكون من فناء مكشوف أوسط مستطيل وفي كل من جانبيه الطويلين حجرتان ملتصقتان ببعضهما.

والنموذج الثاني : الحيري أو العراقي يتمثل في الوحدات السكنية بقصر الأخيضر ، ويتكون من فناء مكشوف يقرب شكله من المربع ، وفي كل من جانبيه متقابلين منه مجموعة من ثلاث وحدات الوسطى منها إيوان مفتوح على الفناء مباشرة أو على سقيفه تتقدمه مفتوحة على الفناء وعلى كل من جانبي الإيوان حجرة .

ويبدو أن النظام الشامي كان هو السائد في الفترة الأموية هنا في مصر ، ثم انتشر النموذج العراقي منذ قيام الدولة العباسية وأخذ النموذج الشامي يتوارى شيئا فشيئا حتى اختفى مع مرور الزمن.

وتظهر حفائر مدينة القسطنطينية لهذه البيوت جاء معظمها على النمط الحيري (العراقي) .

وكانت البيوت تتكون من وحدة سكنية واحدة أو وحدتين أو أكثر ، وكانت البيوت تحتوي على مرافق خدمية ، كما ارتفعت أحيانا لعدة طوابق .

واستمرت هذه النوعية من البيوت مع بعض التطورات حتى وصلتنا النماذج الباقية الكاملة للبيت المصري في العصر العثماني والتي من خلالها نستطيع أن نعطي انطباعا كاملا عن الشكل العام للبيت في مصر الإسلامية والتي صار يطلق عليه البيت الإسلامي .

وفي هذه النماذج أصبح البيت مقسما إلى قسمين :

الأول سفلي : وهو خاص بالاستقبال وإقامة الضيوف وسمي بالسلامك .

والثاني علوي : وهو خاص بحجرات المعيشة وغرف الحريم وكان يحرم على الغرباء الصعود إليه لذلك سمي بالحرملك .

وأصبحت الوحدات الرئيسية المكونة للبيت كالتالي :

المدخل : وهو فراغ انتقالي بين الداخل والخارج ويكون منكسرا لإضفاء نوع من الخصوصية وحتى لا يتمكن من الخارج رؤية من بالداخل حتى وإن كان الباب مفتوحا ، وله بعد أمني أيضا فيعمل هذا المدخل على تعطيل من يدخل لتمتلك النساء أو صاحب البيت من الهرب من الأبواب السرية إذا دعت الضرورة .

الفناء : ويعد المحور الأساسي في البيت وعليه تفتح بقية الوحدات وكان فراغا مستقلا تماما عن الخارج وبالتالي كان محورا لمزاولة الأنشطة اليومية بحرية وكان هذا الفناء مكشوبا وفي كثير من الأحيان يحتوي على بستان أو حديقة أو فسقية في الوسط ، كما كان لهذا الفناء بعدا وظيفيا حيث كانت تقام فيه الحفلات والمناسبات كالخطبة والزواج وغيرها فتستطيع الأسرة الاحتفال بأي عدد تريده وفي نفس الوقت تمنع من تشاء من الدخول فهو فراغ كبير لكنه خاص ، أيضا كان لهذا الفناء دور في المعالجات المناخية للبيئة المصرية الحارة إذ كان يعمل كمنظم حراري ليلا ونهارا ، وباختصار فإن هذا الفناء في البيت الإسلامي كان هو المتنفس للبيت وأهله .

التختبوش : وهو يقع في الدور الأرضي عبارة عن فراغ مضيء ومقفل من ثلاث جهات وتفتح الجهة الرابعة على الفناء المكشوف وقد ترتفع أرضية الفناء بدرجة واحدة ويحتوي على أرائك ودكك ووسائد وله غرض وظيفي حيث يجلس به أصحاب البيت في أوقات السمر ليتمتعوا بالهواء والمنظر الطبيعي والنظر إلى السماء ليلا ، كذلك كان يجلس به الضيف حتى يأتي صاحب البيت لاستقباله ، كما كان يستغل أيضا في الحفلات الأسرية .

القاعة : وهي المكان المخصص للاستقبال ، وتتكون في أغلب الأحيان من درقاعة مربعة يحيط بها إيوانان أو أكثر في جهاتها المختلفة ، وهذه الإيوانات تعلو أرضيتها عن أرضية الدرقاعة وتحتوي على بعض الأثاث والوسائد الخاصة بالجلوس ، أما الدرقاعة الوسطى فكثير من الأحيان تحتوي على نافورة صغيرة رخامية ، وسقف الدرقاعة يعلو على سقف الإيوانات ويغطي بشخشيخة أو قبة صغيرة خشبية .

المقعد : وهو عبارة عن استراحة أو مكان مسقوف ويقع في الدور العلوي وغالبا ما يقع فوق المدخل المنكسر ، ويفتح على الفناء الداخلي مواجهها للتختبوش وكثيرا ما تكون الفتحة على شكل عقدتين ومغشاة بخشب الخرط ، وغالبا ما كانت تجلس به النساء وتستطيع من خلاله رؤية من بالفناء من الأغراب من خلال خشب الخرط دون أن يراها .

ومن هنا نستطيع القول بأن البيت صار تخطيطه عبارة عن صحن أوسط مكشوف (فناء) تفتح عليه بقية الوحدات سواء في الدور الأرضي أو الأدوار العليا وأصبح البيت مقسما إلى قسمين الأرضي للاستقبال والأدوار العليا للإقامة والمعيشة وبه وحدات خدمية ، وأحيانا ما يحتوي البيت على فناء آخر يكون مخصصا للخدم ويكون فيه الساقية والطاحونة وحوله المخازن ومسكن الخدم .

وقد احتوى البيت من الداخل على العديد من أنواع الزخارف الرائعة من كتابية ونباتية وهندسية حتى أن من يراه من الخارج لا يظن أنه يمثل هذا الجمال من الداخل فقد كان الخارج عبارة عن جدران فقط لا أثر فيها للجمال المعماري سوى أشكال المشربيات في الأدوار العليا .

ولم يحتو البيت في الدور الأرضي على فتحات خارجية وإن وجدت فتكون ضيقة ومرتفعة بحيث لا تسمح لمن بالخارج بأي حال من الأحوال رؤية من بداخل البيت ، بينما كانت الفتحات في الأدوار العليا مغطاة بخشب الخرط والتي اصطلاحاً على تسميتها بالمشربيات وهي تسمح لمن بالداخل رؤية من الخارج ولا تسمح بالعكس .

والحقيقة أن هذا الجو الداخلي الرائع للبيت الإسلامي كان مقصوداً فيستطيع الإنسان العيش داخل البيت متمتعاً بكل المزايا خارجة فمن الفناء السماوي المفتوح ترى الشمس والنجوم وتتمتع بالهواء وفيه المناظر الطبيعية من مياه وزروع ، وفي الداخل ترى الجمال المعماري والزخرفي في ظل بيئة خارجية تفتقر لهذا الجمال .

أما الوحدات الداخلية فإلى جانب أنها احتوت على كل الوسائل التي تمكنها من القيام بوظيفتها على خير وجه فقد عمل المعماري على ربطها جميعاً بشبكة من الممرات الداخلية تسمح لأهل المنزل بالتنقل في كل أنحاء البيت دون المرور على الفناء الأوسط إذا لزم الأمر .

من هنا نرى أن تميز وضع المرأة في المجتمع الإسلامي بالحجاب وعدم ظهورها . كما هو الآن . كإمرأة مجتمعات في الحفلات والملاهي ، جعل المعماري المسلم يحاول أن يخلق لها الجو الخارجي داخل حدود المنزل والذي يجعلها تستغنى به عن الخروج إلا للضرورة . ومن البيوت التي وصلتنا من العصر العثماني : بيت الكريتلية (١٠٤١هـ / ١٦٣١م) ، بيت السحيمي (١٠٥٨ . ١٢١١هـ / ١٦٤٨ . ١٧٩٦م) ، سراي المسافر خانة (١١٩٣ . ١٢٠٣هـ / ١٧٧٩ . ١٧٨٨م)

ج- الأربع :

المعنى الشائع للربيع هو أنه مسكن لإيواء الفقراء (مسكن شعبية) . وهذا المعنى قاصر على الفترة الأخيرة من العصر العثماني في مصر والتي وصلتنا منها نماذج لهذه الأربع وبالتالي صار هذا المعنى هو الأكثر ارتباطاً به . لكن الربيع في الأصل مرادف لمعنى الدار أو البيت بل هو أسبق منه للدلالة على المنشأة السكنية . وله أصوله التي تعود إلى ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية .

وبعد ذلك أصبح هذا اللفظ يراد به حيناً المنشآت السكنية التي تؤجر للغير أي التي يقصد منشأها من ورائها مكسب مادي سواء أكانت هذه الرباع مستقلة أو تعلو إحدى المنشآت الأخرى وخاصة التجارية وتختلف طوابق هذه الرباع من دور واحد أو تصل أحياناً إلى ستة أدوار .

وربما كانت هذه الوظيفة الجديدة للرباع هي التي أوجت للقائمين على الأمر أواخر العصر العثماني في مصر بتأجيرها إلى الناس المعدمين .

ويستدل من بعض المصادر أن مساحة بعض الرباع كانت ضخمة للغاية ، فيذكر ابن دقماق في كتابه " الانتصار لواسطة عقد الأمصار " أن ربيع الأمير بكتمر (من العصر المملوكي) في مصر القديمة كان فيه العديد من مئات الأسر لدرجة أنه روى قصة فحواها أن أحد الرجال الشيوخ الذي بقى في الربيع أكثر من ستين عاماً قابل شخصاً آخر وتعارفاً وسئل بعضهما البعض عن مكان سكناهما واتضح أنهما يسكنان ربيع بكتمر منذ أكثر من ٦٠ عاماً ولا يعرف بعضهما البعض ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على كبر مساحة ذلك الربيع وكثرة سكانه .

ويذكر المقرئ أيضاً أن وكالة قوصون كان يعلوها ربيع يتكون من ٣٦٠ بيتاً .

والربع عادة وخاصة في العصر العثماني كان يتكون من صحن أوسط مكشوف كبير إما مربع أو مستطيل وتدور حوله البيوت السكنية وتفتح عليه بمدخلها في جميع الأدوار حيث يوجد ممرات في العليا تدور حول الصحن وتوصل إلى هذه البيوت ، وللربع مدخل واحد كبير مشترك عليه بوابة ويقوم بحراستها أحد أفراد سكان الربع .

٢- المنشآت التجارية :

المنشآت التجارية من أبرز أنماط العمارة المدنية الإسلامية ، ووجود هذه المنشآت يرتبط بالدرجة الأولى بمدى ازدهار الحياة الاقتصادية في أي فترة من الفترات التاريخية بل وفي أي قطر من الأقطار الإسلامية ، فالعصور التي تشهد رخاء اقتصاديا يقابله على الفور كثرة في المنشآت التجارية والعكس صحيح.

وللمنشآت التجارية مصطلحات عدة مختلفة في ألفاظها ومتفكة في دلالتها منها " الوكالة - الخان - الفندق - القيسارية - دار التجار - كروان سراي الخ " . وقد تميزت بعض هذه المصطلحات بالانتشار في إقليم من أقاليم العالم الإسلامي دون آخر ، فقد عرفت تلك النوعية من المنشآت التجارية التي ينزلها التجار وتعرض فيها البضائع في مصر باسم الوكالة ، بينما عرفت في بلاد الشام بالقيسارية وفي وسط آسيا وشرق العالم الإسلامي باسم الخان أما في المغرب الإسلامي فانتشر مصطلح الفندق .

ونظرا لعدم وجود حدود بين أقاليم العالم الإسلامي وانتشار وانتقال التجار في أنحاءه فقد اختلطت المصطلحات وربما تواجدت جميعها في بلد واحد .

والتخطيط العام لهذه المنشآت تقريبا متشابه فهو عبارة عن صحن واسع مكشوف في الوسط يحيط به الوحدات من الجهات الأربع وترتفع لعدة أدوار .

والدور الأرضي يحتوي على المخازن للبضائع (حواصل) وساقية ويئر ماء ، وأحيانا سبيل يعطوه كتاب ، كما يحتوي الدور الأرضي على إسطبلات للدواب .

أما بقية الأدوار العليا فخصصت لسكن التجار ، أو لسكن العامة إذا كانت المنشأة متعددة الأدوار وفي هذه الحالة يطلق على هذه الأدوار العليا مصطلح ربع .

وكان تخطيط كل وحدة من هذه المساكن عبارة عن دورقاعة وإيوان أو دورقاعة وإيوانين أو غيرها .

وفي بعض الوكالات الكبرى كانت هناك أجنحة خاصة ولا اتصال بينها وبين غيرها من الوحدات السكنية وكانت مخصصة لكبار التجار وكان لها مداخل مستقلة . ومن أشهر الوكالات بمصر وكالة الغوري من العصر المملوكي الجركسي بحي الأزهر (٩٠٩ . ٩١٠ هـ) [شكل ١٥] وبعض الوكالات من العصر العثماني مثل وكالة بازعة بالجمالية ، وكالة سليمان باشا الخادم ، وكالة الصنادقية ، وكالة وقف الحرمين وغيرها .

٣- المنشآت الخيرية :

نقصد بها تلك المنشآت التي وجدت لتؤدي خدمات عامة دون مقابل مادي وإنما بغرض الثواب من الله.

ومن أهم هذه المنشآت :

أ- السبيل :

حيث أستخدم على تسمية المباني التي خصصت لتزويد الناس بالماء العذب الصالح للشرب في مصر باسم الأسبلة ، وقد انتشرت هذه النوعية من المنشآت الخيرية في أنحاء العالم الإسلامي وبصفة خاصة في البيئات الحارة لحاجة الناس الماسة لمياه الشرب .

وقد وصلت إلينا أعداد كبيرة من الأسبلة في العصرين المملوكي والعثماني وخاصة أن عنصر السبيل أصبح من العناصر الأساسية التي تلحق بالمنشآت الأخرى كالمساجد والمدارس والوكالات وغيرها هذا بالإضافة إلى الأسبلة المستقلة.

ويتكون السبيل من جزئين منفصلين : الأول : مبنى تحت الأرض ويسمى الخزان ويكون مبنيا بالأحجار أو الطوب المحروق ويكسى بطبقة سميكة من الملاط المخصوص لمقاومة التآكل بفعل المياه ويغطي الخزان بقبو أو بقبة ضخمة مقامة على مثلثات كروية أو يتم تقسيم مساحة الخزان عن طريق عقود محمولة على دعائم أو أعمدة وبالتالي يسهل تسقيفها بأقبية أو قباب أو بهما معا ، وكان بسقف الخزان عادة ثلاث فتحات الأولى تسمى فتحة المأخذ يؤخذ منها الماء وتسمى " خرزة " والثانية فتحة تزويد الخزان بالمياه من النيل أو غيره ، والثالثة فتحة النزول إلى السلم لتنظيف الخزان عند الضرورة .

أما الجزء الثاني فهو فوق الأرض يسمى حجرة السبيل وهي إما مربعة أو مستطيلة وبها دخلة تسمى دخلة الشاذروان حيث يوجد بهذه الدخلة لوح رخامي مائل عليه نقوش بارزة وغائرة ويسمى لوح التسبيل وفوقه حجرة صغيرة تسمى المصنع المعلق إذ تحتوي على ثلاث أحواض في مناسيب متدرجة ، فعند تشغيل السبيل ترفع المياه وتصب في الحوض الأول وبعد امتلائه تسيل المياه إلى الحوض الثاني ثم الحوض الثالث وبعد امتلائه تسيل المياه بهدوء على اللوح الرخامي المائل وتسير في النقوش البارزة والغائرة مما يعمل على تبريدها وتنقيتها من الشوائب . إذا تبقى شوائب بعد المصنع المعلق . ثم تتجمع المياه أسفل اللوح الرخامي في مكان يسمى الطشضية تخرج منه أنابيب تسير في أرضية حجرة السبيل لتحمل المياه إلى أحواض أمام الشبابيك ليأخذ منها المارة المياه للشرب .

وكانت شبابيك حجرة السبيل مختلفة فهي إما شباك واحد أو اثنين أو أكثر ، وعادة ما يكون على فتحة الشباك شبكة من المصبغات المعدنية سواء نحاسية أو برونزية تربط بها سلاسل تتصل بكيزان الشرب وبهذه الطريقة يستطيع السائر أن يتناول المياه بسهولة .

وكما سبق أن ذكرنا فإن حجرة السبيل هذه كان يعلوها دائما مكتب السبيل أو الكتاب لتعليم أطفال المسلمين وقد سبق شرحه .

وهناك نوع آخر من الأسبلة يوجد بها بكرة ترفع المياه من الصهريج ثم توضع في الأحواض مباشرة أو توضع في مكان تتوزع منه المياه بواسطة أنابيب في الحوائط نفسها وليس في الأرضية .

وكان هناك موظف مخصص بالسبيل يسمى المزملاطي يراعى فيه شروط خلقية وخلقية بمعنى أن يكون خالي من الأمراض والعاهات خفيف اللسان حلو الكلام ... كما نصت الوثائق ، وأن يراعى ضميره ومواعيد العمل التي حددها الواقف ، وألا يرتشي ، وتراعى فيه النظافة الدائمة ... وهكذا .

ولم يكن هناك فرق في المكونات الأساسية للسبيل المملوكي والسبيل العثماني إنما كان الفرق في شكل الواجهة الخارجية إذ كانت الأسبلة المملوكية تأخذ الأشكال المربعة أو المستطيلة وتفتح على الخارج بشبابيك بهذا الشكل ، أما واجهة الأسبلة العثمانية فكانت دائرية على شكل قوس وشبابيكها ذات عقود متورة هذا بالإضافة إلى الاختلاف في الزخارف .

وقد وصلتنا نماذج عديدة من الأسبلة الملحقة بمنشآت في العصر المملوكي ، وكان بعضها مستقلا ومنها سبيل السلطان قابتباي (٨٨٤هـ / ١٤٧٩م) والذي يعد واحد من أكبر أسبلة القاهرة وأجملها .

وقد بنيت بعض الأسبلة في العصر العثماني على الطراز المملوكي مثل سبيل خسرو باشا (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م) بشارع المعز وسبيل عبد الرحمن كتحدا (١١٥٧هـ / ١٧٤٤م) بشارع المعز أيضا .

وبعضهما بني على الطراز العثماني مثل سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب (١١٧٣هـ / ١٧٥٩م) وسبيل رقية دودو (١١٧٤هـ / ١٧٦١م) بشارع سوق السلاح بالقاهرة .

ب- البيمارستان :

كلمة فارسية مركبة من " بيمار " وتعني مريض و " ستان " بمعنى مكان أو دار فمعناها إذا " دار المرضى " وعلى ذلك فالبيمارستان هو المقابل لما نطلق عليه اليوم مستشفى وهو ابتكار إسلامي حيث لم يكن موجودا قبل الإسلام ، فقد شيد العديد من الملوك والسلاطين بيمارستانات يعالج فيها المرضى على اختلاف أنواع أمراضهم وتجري فيه العمليات الجراحية لمن يحتاج إليها ، وكان المرضى يتمتعون بالدواء والغذاء والكساء مجانا حتى يتمثلوا للشفاء .

وقد وصلنا ذكر العديد من البيمارستانات في مصر كتلك التي أنشأها أحمد بن طولون وصلاح الدين الأيوبي وغيرها والتي أسهب المؤرخون في وصف تنظيمها ورعايتها للمرضى وطريقة عملها وأساليب العلاج والدواء بها وكيف أنها كانت تحظى برعاية السلاطين والحكام أنفسهم إلا أن هذه المنشآت قد اندثرت .

وقد بقى لنا نموذج من هذه النوعية من المباني هو بيمارستان قلاوون والذي يقع ضمن مجموعته المعمارية التي تضم إلى جانب البيمارستان مدرسة وقبة ضريحية .

ويقع البيمارستان بشارع المعز لدين الله بمدينة القاهرة .

أما المنشئ فهو السلطان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي أحد سلاطين المماليك البحرية والذي تولى السلطنة سنوات (٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م) .

وكان هذا البيمارستان هو أول وحدة معمارية بنيت في هذه المجموعة حيث تم تشييده سنة ٦٨٣هـ ويقال أن السبب في بنائه أن قلاوون عندما كان أميرا أثناء سلطنة الظاهر بيبرس توجه على رأس جيش لغزو الروم سنة ٦٧٥هـ فأصابه مرض خطير قرب دمشق فعالجه الأطباء بأدوية أخذت من بيمارستان نور الدين محمود فشفي وركب حتى رأى البيمارستان فأعجب به ونذر إن أتاه الله الملك أن يبني بيمارستاناً فلما تولى الحكم أخذ في عمل ذلك .

وكان موضع البيمارستان قاعة من قاعات القصر الغربي الفاطمي الصغير تعرف بالدار القطبية نسبة للأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية ، وقد اشترى قلاوون الدار وما يجاورها وعوض سكانها بقصر يعرف باسم قصر الزمرد ، وقد أسند مهمة الإشراف على العمارة إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاع الذي كان له دراية بفن المعمار .

وقد أوقف السلطان هذا البيمارستان على مثله . أي من هو مثل السلطان . فمن دونه أي ينتفع به كل الناس على اختلاف طبقاتهم ، وجعل لمن يخرج منه عند شفائه كسوة ، ومن مات جهز وكفن ودفن .

ورتب فيه السلطان الأطباء في جميع التخصصات وكذلك الصيادلة والمرضى والعمال وزوده بالأثاث والأدوات اللازمة ، كما جعل فيه عيادة خارجية .

وكان البيمارستان يتكون من قاعة كبيرة عبارة عن أربعة إيوانات ويصدر كل إيوان شاذرون يصير ماؤه إلى فسقية تتوسط الدقاعة ، وقد خصصت الإيوانات لعلاج مرضى الحميات ، كما ألحقت بالمبنى أربع قاعات رئيسية أخرى جعلت إحداها للرمد والثانية للجرحى والثالثة لمرضى الإسهال والرابعة للنساء .

وكان بالبيمارستان أيضا جناح خاص بالمجانين وهو مقسم إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وكل قسم عبارة عن فناء متسع به أشجار الفاكهة والزهور ويتوسطه فسقية يتوصل إليها الماء من الصهريج الرئيسي للمجموعة ويدور حول الفناء حجرات ، تسعة عشر في قسم الرجال ، وإحدى عشرة في قسم النساء .

وقد بقي من القاعة الرئيسية ثلاثة إيوانات بينما هدم الرابع " الجنوبي الغربي " عند شق الطريق الحالي المؤدي إلى مستشفى قلاوون للرمد .

وكان كل إيوان يفتح على الفناء الأوسط " الدقاعة " بفتحة معقودة ويسقفه سقف خشبي من قصب (حقاق) خشبية مدهونة بألوان مختلفة ، ويصدر الإيوانات دخلة الشاذرون ويعلوها ملقف (بازاهنج) ويصدر هذه الدخلة سلسيل رخامي ينحدر منه الماء إلى حوض من الفسيفساء تصب بعد ذلك في مجرى يوصل الماء إلى الفسقية في وسط الفناء " الدقاعة " .

وقد عثر بالبيمارستان على أفاريز خشبية تشتمل على رسوم محفورة وملونة تمثل مناظر من الحياة الاجتماعية في القاهرة ، ومن المعتقد أن هذه الأفاريز كانت تزخرف أصلا القصر الغربي الفاطمي ثم أعيد استعمالها في البيمارستان على الظهر الخالي من الزخارف المحفورة .

وكان بيمارستان قلاوون من أبقي المنشآت الأثرية القديمة استعمالا إذ ظل يستخدم كمستشفى حتى سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٦م حين اقتصر استخدامه على مرضى العقول ثم نقلوا منه بعد ذلك ، وأخيرا انشئ به في سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م مستشفى الرمد الذي يستخدم حتى الآن .

ج- أحواض سقي الدواب :

لم تقتصر العناية بتوفير المياه للإنسان فحسب ولكنها امتدت لتشمل الحيوان أيضا ، وعرفت هذه المنشآت بأحواض السبيل حيث أنها أوقفت في سبيل الله استنادا إلى قول الرسول الكريم " وفي كل ذات كبد حراء أجر " ، كما كان هناك بيمارستانات للحيوانات .

وأقدم إشارة لأحواض سقي الدواب ترجع إلى بداية العصر الإسلامي في مصر حيث كان موجوداً بقرافة المماليك ، ثم ذكر المؤرخون أنه كان خلف الجامع الأحمر حوض لسقي الدواب وجدده الأمير يلغا عندما جدد الجامع في عهد السلطان برقوق .

ثم انتشرت هذه الأحواض بعد ذلك ولكنها كانت معرضة للهدم ، وقد تبقى منها بالقاهرة بعض هذه الأحواض منها حوض أنشئته أم السلطان شعبان وآخر أنشأه الأمير قجماس الاسحاقي وثلاثة أنشأهم السلطان قايتباي ، وهي جميعا ترجع للعصر المملوكي ، وتصميم الحوض فيها عبارة عن دخلة عميقة تشرف على الشارع بعقد أو أكثر ويصدر هذه الدخلة حنايا غير عميقة أسفلها حوض يأتيه الماء من ساقية ، وقد يكون في المنشأة الواحدة أكثر من حوض يملأ بالماء ، وتسقف المنشأة بأسقف متنوعة .

كما تبقى بالقاهرة أيضا ثلاثة أحواض من العصر العثماني منها حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة وهو عبارة عن رواقين مغطيان بأربع قباب ضحلة مقامة على مثلثات كروية .

وحوض محمد بك أبو الذهب خلف جامع بحى الأزهر وهو عبارة عن دخلة أو إيوان مستطيل يشرف على الشارع ببائكة ثنائية بعقدين ويغشى الجزء الأسفل من هذه البائكة سياج خشبي له باب ويصدر هذا الإيوان دخلات الشرب ، والسقف خشبي مسطح .

هـ - منشآت النظافة (الحمامات العامة) :

نهضت الحمامات العامة بدور كبير في حياة المجتمع الإسلامي من خلال عصوره الوسطى بل وحتى أوائل القرن العشرين . والحمام لفظة تأتي حيناً مذكرة ومؤنثة في نفس الوقت ، وله مترادفات كثيرة كالحميم والحميمة والحمى وهي تمثل معنى واحد وهو الماء الحار شديد السخونة .

وقد تميزت المدن الإسلامية بوجود هذه الحمامات العامة بل واعتبرها البعض من شروط بناء المدن الجديدة والتي يطلق عليها المدن المنابرية أي التي بها المسجد الجامع ، وكثيراً ما كان الحمام بالشارع الرئيسي للمدينة حيث المسجد الجامع ودا الإمارة والسوق والحمام.

وقد اعتبر الرحالة الأجانب الذين توافدوا على المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى أن الحمام من مظاهر العظمة والرفاهية حيث أن الحمامات العامة لم تكن موجودة في أوروبا في العصور الوسطى .

والحمام في أي مدينة إسلامية يمثل المنتدى الاجتماعي الذي يهرع إليه عامة الناس وخاصتهم من الرجال والنساء حيث يروحون عن أنفسهم وخاصة النساء إذ كان الحمام مصدر الترويح والثروة ، كما كان مصدراً للزواج حيث تختار السيدة لابنها زوجة في مثل هذه المنتديات .

وكان يتم في الحمام أيضاً عقد الصفقات التجارية ، وكذلك تدبير المؤامرات والاضغاثات وغير ذلك ، وكانت أيضاً تستخدم لإبراء كثير من الأمراض مثل أمراض الروماتيزم والمفاصل .

وللحمام العام آداب مرعية وتقاليد متبعة يحرص على تنفيذها المحتسب وأعوانه ، كذلك كانت تشترط شروط خاصة فيمن يتولى وظائف الحمام .

وكانت هناك حمامات للرجال وأخرى للنساء وحمامات أخرى مزدوجة عبارة عن قسمين منفصلين لها مستوقد واحد . كما وجدت أحياناً حمامات خاصة بالشباب الغير متزوج تسمى حمامات الأبقار .

وقد عرفت الحمامات العامة في العصر اليوناني واستمرت في العصر الروماني ، وكان تخطيط الحمام فيها عبارة عن ثلاث غرف هي (الغرفة الباردة - الغرفة الدافئة - الغرفة الساخنة) وكان هذا التتابع في التخطيط لحرص المعمار على صحة المستحم حيث يتدرج في الحرارة ليتكيف جسده بهدوء مع الجو المحيط به فلا يحدث له ضرر ، وكان التسخين يتم أسفل الحمام ويخرج عبر الجدران وهو ما يشبه الآن حمامات البخار . وقد استمر هذا النمط سائد حتى مجئ الإسلام ووجدت له نماذج عديدة في مصر وسوريا وبلاد الأناضول وغيرها .

وسرعان ما ظهر في العصر الإسلامي بعض التغيرات على الحمامات العامة تمثلت أولى خطواتها في إضافة قاعة للاستقبال بالحمام مثلما نجد في حمام قصير عمرة بالأردن وهو من العصر الأموي [شكل ١٦].

وكان يتألف من قاعة للاستقبال وحمام من ثلاث حجرات ، وقد قسمت قاعة الاستقبال إلى ثلاثة أقسام عن طريق عقدين يمتدان من الشمال إلى الجنوب ويحملان مع جدران القاعة ثلاثة أقبية نصف دائرية وبالجدار الجنوبي من القسم الأوسط حنية العرش حيث رسم على جدارها الخلفي صورة عظيم يجلس على عرش ، ويكتنف هذه الحنية حجرتان لخلع الملابس .

أما الحجرات التي تمثل الحمام فالأولى منها وهي الباردة مسقوفة بقبو نصف دائري (برميلي) والثانية الدافئة مسقوفة بقبو متقاطع ، والثالثة الساخنة مسقوفة بقبو .

وقد بني القصير من الحجر الجيري الأحمر وكسيت جدرانه بطبقة سميكة من الملاط ، كما كانت الأرضية مكسوة ببلاطات من الرخام يجري أسفلها أنابيب البخار الساخن .

ويزخرف الجدران من الداخل صور بالألوان المائية (فريسكو) تمثل مناظر لموضوعات مدنية شتى من مناظر صيد واستحمام ورقص وبروج سماوية وغيرها.

وقد أدخلت إضافة أخرى على الحمام في العصر الإسلامي حيث اختلفت طريقة التسخين فأصبح له مكان مستقل بذاته يسمى المستوقد .

وكانت الحجرات الثلاث هي القاسم المشترك بين الحمامات في الأقاليم الإسلامية وإن اختلفت المساحة أو المسميات من بلد إلى آخر .

وهناك نمط من تخطيط الحمامات يطلق عليه النمط المصري حيث كان مميّزا للحمامات المصرية ، ويبدو أنه وجد في العصر الفاطمي واستمر بعد ذلك .

وتخطيط النمط المصري كالتالي :

الحجرة الأولى وتسمى المسلخ : " غرفة خلع الملابس واستبدالها بملابس الحمام " وهي عبارة عن درقاعة وسطى مغطاة بشخشيخة وحولها أروقة تختلف من حمام لآخر من حيث العدد فهي من رواق واحد إلى أربعة أروقة والجزء السفلي من الأروقة مغشى بحجاب خشب الخرط ليفصل كل شخص عن الآخر .

الحجرة الثانية تسمى بيت أول : وهي تمثل الحجرة الدافئة وهي عبارة عن درقاعة وإيوانين أو سدلتين وتكون مفروشة بأحسن المفروشات ، كما يوجد فيها أحيانا حوض للتطهير .

الحجرة الثالثة تسمى بيت الحرارة : وهي أساس الحمام المصري والتخطيط المعتاد لها عبارة عن درقاعة وأربع إيوانات ، وبالدراقاة فسقية وبين الإيوانات توجد مقاصير خاصة أو خلوات تحتوي على مغاطس .

وكانت التغطية بالأحجار عادة على شكل قباب يتخللها تفریغات تعشق بالزجاج الملون وتسمى مضوي .

ومن أهم الحمامات الباقية بالقاهرة : حمام بشتاك (٧٤٢هـ / ١٣٤١م) ، حمام السلطان المؤيد شيخ (٨٢٣هـ / ١٤٢٠م) ، حمام إينال (٨٦١هـ / ١٤٥٦م) ، حمام الملاطيلي (١١٩٤هـ / ١٧٨٠م) ، حمام الطمبلى (١٢هـ / ١٨م) .

النوع الثالث : العمارة الحربية :

حث الإسلام على الدفاع عن النفس والبلاد ، بل أمر بالاستعداد الدائم حتى لا تكون بلاد المسلمين مطمعا للغزاة فقد قال الله عز وجل آمرا المسلمين " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " .

ونظرا لما قام به بعض الملوك من قتل سفراء الرسول إليهم فقد كان ذلك إيذانا ببداية الحروب الكبرى في العصر الإسلامي المبكر والتي قضى فيها المسلمون على دولة الفرس الساسانيين وورثوا أرضها وكذلك فتحوا بلاد كثيرة كانت خاضعة للدولة البيزنطية .

وما يعنينا هو أن معظم المدن الأولى في التاريخ الإسلامي كانت معسكرات للجند ثم بعد أن استقرت أوضاع الدولة الإسلامية تحولت هذه المعسكرات إلى مدن بالمعنى المفهوم ، ومن هنا لم تحتو هذه المدن على تحصينات حربية في بدايتها ، ثم كان الاهتمام بتحصينها بعد ذلك .

ثم بدأت تظهر المدن الجديدة التي أنشئت لتكون عواصم للدول والأسرات الحاكمة ولذلك كان الاهتمام الزائد بتحصينها بالأسوار القوية للدفاع عنها لأن سقوطها يعني سقوط الدولة وسقوط الأسرة الحاكمة معها .

وعلى هذا المبدأ أسست مدينة بغداد لتكون عاصمة للعباسيين وأسست القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين وغيرها ، كما اهتم الحكام بالمدن المتاخمة للأعداء أو تلك التي يخشى تعرضها لغزو خارجي من البر أو البحر فأدير حولها الأسوار للحماية مثلما فعل أحمد بن طولون بالمنطقة المسكونة بمدينة الإسكندرية في عصره .

ثم تطورت أساليب القتال وأسلحة الهجوم زمن الحروب الصليبية فلجأ المعماري الدفاعي إلى زيادة فاعلية التحصينات بإنشاء القلاع الحربية المتينة.

وسنحاول هنا أن نتكلم عن الخصائص العامة للنوعيات المختلفة من العمارات الحربية .

١- الأسوار :

استفاد الأمويون من الحصون الرومانية التي رأوها في بلاد الشام وتأثروا بها فأنشئوا القصور ذات الجدران الحجرية والتي يتخللها أبراج دفاعية مثلما هو موجود بقصر المشتى وقصر الطوبة وقصري الحير الشرقي والحير الغربي وقصر خربة المفجر . ثم ظهرت الأسوار بأشكال متطورة وقوية في العصر العباسي فقد شيد حول بغداد سورين بينهما فاصل وانتشر بناء الأسوار حول المدن فقد بنى المنصور مدينة الرقة سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢م على نمط مدينة بغداد في الأسوار غير أن تخطيطها كان على شكل حدوة الفرس .

وهكذا صارت المدن الإسلامية التي أسست في الشرق أو الغرب تحتوي على مثل هذه الأسوار الدفاعية.

وقد تميزت الأسوار الدفاعية الإسلامية بالضخامة من حيث الارتفاع والعرض فقد كان عرض سور القاهرة يسمح بأن يسير عليه فارسان متجاوران بحرية تامة وذلك في العصر الفاطمي .

وكانت الأسوار غالبا مصممة حتى الثلث العلوي حيث نجد الممر المقبى داخل السور والذي يستطيع السائر فيه أن يدور حول المدينة وهذا الممر يساعد على نشر القوات للدفاع عن المدينة وقت الحصار كما يسمح بتدفق الجند لسد أي ثغرة قد تحدث في السور عند تعرضه لهجوم ، وكان بهذا الممر مرامي للسهم (مزاغل) وهي عبارة عن فتحات طولية وتتميز بأنها تتسع في الجهة الداخلية وتضيق كلما اتجهنا للخارج وهي تستخدم للإضاءة والتهوية وقت السلم أما أثناء الحصار يستطيع الجنود الوقوف خلفها وقذف العدو المهاجم بالسهم من خلالها.

كما كانت هناك سلالم صاعدة وهابطة من وإلى هذا الممر وبعضها يوصل إلى سطح السور حيث توجد كتل حجرية ضخمة موضوعة بشكل منتظم فوق الحافة الخارجية للسور وتسمى دراوي ، وفائدة هذه الدراوي أنها تخفي تحركات الجنود كما يستطيع الجنود الاختباء ورائها وضرب العدو بالسهم .

وكان ملتصقا بجسم السور وعلى مسافات متساوية أحيانا أبراج اختلف شكلها من سور لآخر ، وكانت هذه الأبراج مصممة حتى الثلث العلوي ، ثم نجد بالأبراج حجرات تخرج منها أذرع وينتهي كل ذراع بفتحة لرامي السهم ، وفائدة هذه الأبراج هي المساعدة في تدعيم جسم السور والحفاظ عليه من التهدم ، ثم الفائدة الأساسية وهي الدفاع عن السور وخصوصا من الأجناب حيث توجد نقاط مينة فيستطيع البرج تأمينها ، وكانت حجرات السور تقع في دورين أو أكثر وتكون مغطاه بأقبية وقياب ضخمة مقامة على مثلثات كروية .

كما كانت الأسوار تزود أحيانا ببروز علوي ناشئ من جسم السور على شكل شرفة (يلكون) مقامة على كوابيل حجرية ، وفتحت بأرضيتها فتحات لإلقاء الزيت المغلي والمواد الكاوية على رؤوس المهاجمين ويسمى هذا العنصر بالسقاطات ، وكانت تقام فوق الأماكن الضعيفة أو التي من الممكن أن يحاول العدو تسلقها ، كما كانت تقام السقاطات أيضا فوق فتحات الأبواب في السور .

وقد اهتم المعمار الدفاعي بتأمين أبواب الدخول للمدينة فكانت البوابات التي يحتويها السور عبارة عن فتحة في جسم السور يكتنفها برجان كبيران مزدوان بكافة العناصر الدفاعية اللازمة من مزاغل ودراوي وسلالم صاعدة وهابطة ، وكان يغلق على هذه الفتحة باب ضخ في العادة يكون من الخشب السميك جدا والمصفح بالحديد والمزود بمسامير مكوبجة ، وكثيرا ما يعلو فتحة الدخول شرفة متقدمة (سقاطة) لإلقاء المواد الكاوية في حالة الاقتحام .

وفي أحيان يكون هناك خندق يتقدم السور وهو عنصر دفاعي قوي بالنسبة لأساليب القتال في تلك العصور ، كما قد يملأ هذا الخندق بالماء لزيادة فاعليته ، وفي هذه الحالة كانت تقام قناطر إما ثابتة وغالبا متحركة ترفع وتنزل حسب الحاجة وذلك عن طريق بكرات وسلاسل حديدية ، وتقام هذه القناطر أمام فتحات البوابات .

كما قد يلجأ المعماري في بعض الأحيان إلى عمل فتحة الدخول على هيئة مدخل منكسر على شكل زاوية قائمة وذلك لتعويق حركة المهاجمين وإضعافها في حالة تعرض البوابة للهجوم والافتحام وقد تزود البوابة كذلك بباب حديدي من قضبان قوية ورؤوس مسننة ويكون له مجري في السور بحيث ينزلق منها بشدة ويغلق الباب عند الضرورة .

أسوار صلاح الدين :

بدأ صلاح الدين الأيوبي في مشروعه الكبير لبناء سور واحد كبير يضم داخله عواصم مصر الإسلامية (الفسطاط . العسكر . القطائع . القاهرة) وذلك سنة ٥٧٢ هـ بعد تهدم أسوار القاهرة الفاطمية وليستطيع بواسطته من صد أي هجوم خارجي ، وخاصة أنه نشأ وسط البيت الزنكي وشارك في حروب كثيرة ضد الصليبيين وشاهد الحصون والأسوار والقلاع ومالها من دور مهم في تأمين المدن وسير المعارك .

وقد بنى صلاح الدين سوره وأبراجه وأبوابه من الحجر ، ويتكون كل برج من طابقين وسطح علوي مكشوف محاط حافته والسور أيضا بمجموعة من الشرفات (دراوي) .

أما تخطيط الأبراج من الداخل فهي إما مثمنة المسقط ومغطاة بقبة حجرية وفتح بكل ضلع من أضلاع المثلث دخلية معقودة مقببة وبكل منها فتحة مزغل ، أو قاعة متعامدة غطيت المساحة المربعة الوسطى (الدراعة) إما بقبة حجرية أو بقبو متقاطع ويتعامد على الدراعة الوسطى ثلاثة أذرع بكل منهم فتحة مزغل ، وغطيت هذه الأذرع إما بأقبية مدببة أو بقباب ضخمة .

وتميزت بعض الأبواب كالباب الجديد ، والباب المحروق ، وباب القرافة بأنها ذات مداخل منكسرة وانفرد الباب الجديد بوجود القنطرة المتحركة التي تصل بين الباب وشفة الخندق الذي يتقدمه بحيث ترفع عند التعرض للخطر ، فقد كان هناك خندق يتقدم الضلع الشرقي من السور .

وتعتبر هذه القنطرة ثاني مثل في العمارة الدفاعية الإسلامية بعد التي كانت في مدينة بغداد .

كما كان يغلق على هذا الباب أيضا متاريس حديدية وهي عبارة عن قضبان قوية تنتهي من أسفلها بسنان حادة كالحراب وتنزلق بثقلها الكبير رأسيا لتسد فتحة الباب عند تعرضه للهجوم .

أما باقي أجزاء السور وممراته الداخلية فلا تخرج عما ذكرناه سابقا من الخصائص العامة المميزة للأسوار الدفاعية في العمارة الإسلامية .

قلعة الجبل (صلاح الدين) :

بنيت قلعة صلاح الدين على إحدى الهضاب العالية التي امتداد الجهة الشرقية من القاهرة وهي جزء من جبل المقطم تم فصلها بعد ذلك بإنشاء خندق واسع بينهما ثم شق فيه شارع صلاح سالم في الأربعينات من القرن العشرين .

وقد أراد صلاح الدين ببناؤها في وسط السور الذي يحيط بعواصم مصر الإسلامية . إذ كان السور متصلا بها . أن تكون بمثابة المفصل القوي الذي يشد هذه الأسوار بعضها ببعض ، أو بمثابة نقطة ارتكاز قوية في هذه التحصينات ، وخاصة أنه

شاهد ما تقوم به مثل هذه القلاع في سوريا وبلاد الشام من دور في الحروب التي كانت مستعرة مع الصليبيين ، وما اعتاده هناك من رؤية قلعة منشأة بجوار كل مدينة كبيرة يلجأ إليها الجنود عند تعرضهم للهجوم فيستطيعون الدفاع ولا يسهل اقتحامها ثم ينطلقون منها بعد ذلك على العدو المغير لاسترداد المدينة ، وعادة ما تكون هذه القلعة بأعلى هضبة في المدينة .

وقد أشرف على بناء قلعة الجبل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي فشرع في بنائها سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م حيث هدم ما في الموضع من مساجد صغيرة وأزال ما به من قبور ، كما هدم بعض الأهرامات الصغيرة التي كانت بالجيزة ونقل أحجارها ليستخدمها في بناء القلعة إلى جانب الأحجار المقطوعة من جبل المقطم .

والتخطيط العام للقلعة : عبارة عن قسمين رئيسيين : أحدهما شمالي : وهو القسم الحربي وتدور عليه أبراج ضخمة ويحده من الشرق خندق عميق محفور في الصخر ليمنع أي عدو يسيطر على جبل المقطم من الإفادة بإشرافه على القلعة . والثاني : جنوبي : وهو القسم المدني (السكني) ويكون مع القسم الشمالي زاوية قائمة تدور في غير انتظام ، ويفصل بين القسمين حائط سميك به عدة أبراج ، ويطلق على القسمين معا اسم القلعة .

ولم يكتمل بناء القلعة في عهد صلاح الدين فقد توفي سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م فأتتها أخوه الملك العادل وكان ينوب عنه في حكم مصر ابنه الملك الكامل الذي نقل إلى القلعة مقر الحكم سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م وظل بها حتى عهد الخديو إسماعيل .

وينسب إلى صلاح الدين بناء الأبراج النصف دائرية بالقسم الشمالي (الحربي) للقلعة وهي بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية بالإضافة إلى السور الذي يربط بينهما ، وقد انتهى منها عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م كما هو مثبت باللوحة التأسيسية بباب المدرج بالجهة الغربية من القلعة .

كما قام في عصره الأمير بهاء الدين بحفر بئر عميق - بئر يوسف - في باطن الصخر وهو مكون من مرحلتين العليا عمقها ٥٠ مترا والسفلى عمقها ٤٠ مترا ، وتستخرج المياه من البئر بواسطة سواقي في كل مرحلة تدور بالأبقار . وينسب إلى فترة حكم الملك العادل الأبراج الثلاثة الكبيرة في الجهة الجنوبية (برج الصفة ، برج كركليان ، برج الطرفة) والجزء الخارجي ببرجي الرملة والحداد والجزء الداخلي ببرج الصحراء وجميعها بالقسم الشمالي وبنيت بأحجار مسنمة السطح . وللملك الكامل إضافات في القلعة أيضا تمثلت في الأسطبل السلطاني الملحق بالقصر ، وأبراج الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في نقل الرسائل ، وخزانة الكتب التي كانت تؤلف مكتبة القاضي الفاضل ، والإيوان وهو دار العدل ويجلس فيه السلطان للنظر في المظالم ، وياب السر ويختص الدخول والخروج منه كبار الأمراء ورجال الدولة ، وياب القلة وهو الذي يفصل القسم الشمالي والجنوبي للقلعة وكان اسمه باب القلعة ثم حرف إلى القلة ، والجامع ويعرف بجامع الخطبة حيث يصلي فيه السلطان الجمعة .

وقد استمرت العناية والإضافات للقلعة عبر العصور ، ففي العصر المملوكي قام الظاهر بيبرس ببعض الأعمال من أهمها برج السباع حيث نقش عليه رنك بيبرس (السبع) وهو الآن متحف الشرطة ، كما أقام دار العدل وجدد الجامع الذي شيده الكامل .

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون قام بإجراء العديد من الأعمال بالقلعة حتى أن معالمها تغيرت في عهده ومن أبرز أعماله : الجامع والذي مازال موجودا حتى الآن ، القصر الأبلق وقد تم الكشف مؤخرا عن بعض جدرانه ، كما أنشئ قناطر المياه لتوصيل المياه العذبة من النيل إلى القلعة ، واهتم بالميدان لتدريب الجند وأقام الآدر السلطانية والطباق وغيرها من الأعمال .

واستمر الاهتمام بالقلعة في عصر المماليك الجراكسة ، لاسيما في عصر جمقمق وقايتباي وجانبلاط وطومانباي ، وهذه الأعمال عبارة عن تدعيم للأسوار القديمة وسد بعض الأبواب بغرض زيادة وسائل الدفاع.

وقد أصيبت القلعة بأضرار جراء الغزو العثماني حيث نهبت نفائسها وما بها من تحف وهدمت بعض مبانيها ونقلت أعمدتها الرخامية إلى استانبول ، ثم بعد استقرار الأوضاع أنشئ بها بعض الولاء العثمانيون بعض العماير مثل سليمان باشا الذي أنشأ مسجد عرف باسم سارية الجبل عام ٩٣٥هـ / ١٥٢٨م ، وكذلك الوالي أحمد كتحدا العزب الذي أنشأ مسجدا أيضا عام ١١٠٩هـ / ١٦٩٨م .

أما عصر محمد علي فيرجع إليه معظم عمائر القسم الجنوبي (السكني) حاليا حيث هدم معظم ما كان موجودا هناك عدا جامع الناصر محمد وبنى مكانها جامعته الشهير والذي يعد من علامات القلعة حاليا ، وكذلك قصر الجوهرة ودار الضرب . كما أقام قصر الحرم في القسم الشمالي (الحربي) وهو المتحف الحربي حاليا .

وجدد أيضا الأسوار ووسع بعض الفتحات في الأبراج لتلائم وسائل القتال الجديدة (المدافع) ، وأنشأ الطريق المنحدر عند الباب الجديد والصاعد إلى داخل القلعة ليسهل مرور العربات والمدافع ذات العجلات عليه.

وقلعة صلاح الدين القائمة اليوم تشتمل على ثلاث مساحات رئيسية ، الأولى تمثل القسم الشرقي . القلعة الحربية ، وتضم قصر الحريم والمتحف الحربي الآن ومسجد سارية الجبل ، والقسم الغربي يضم التكنات التي أنشأها الأتراك لجنودهم وبقايا قصر الناصر ومسجد أحمد كتحدا ، وفي الجنوب الغربي يوجد بئر يوسف ومسجد الناصر محمد بن قلاوون ومسجد محمد علي وبقايا قصر الجوهرة .

ويتم الدخول من ثلاثة مداخل هي باب العزب في الجهة الغربية والباب الجديد في الناحية الشمالية الذي يحوي بداخله باب المدرج والذي سمي كذلك نسبة لوجود درج صخري يتقدمه ، وباب الجبل في الجهة الشرقية [شكل ١٧] .

وقلعة الجبل محاطة بعدد من الأبراج ، يمكن التمييز بين نوعين ، الأول عبارة عن أبراج نصف دائرية بالجهة الشمالية الشرقية والجنوبية وتنسب لصلاح الدين الأيوبي وهي تتكون من طابقين متشابهين تقريبا كل منهما عبارة عن قاعة مربعة مغطاة بأقبية متقاطعة ويوجد بكل منها ثلاثة مزاغل متصلة بأرض القاعة مما يساعد على سهولة الحركة ، وهذه المزاغل مسقفة بأعتاب حجرية . أما برج المطار والإمام تختلف عنها ، فكل منها عبارة عن زوج من أنصاف الدوائر يجاور أحدهما الآخر ، ويوجد فيما بينها إما حائط سميك مثل برج المطار أو مدخل معقود مثل برج الإمام ، أما الأبراج الركنية فهي مشابهة للأبراج السابقة فيما عدا أن أذرع المزاغل قد وسعت في نهايتها لتصبح ممرات تؤدي إلى أذرع أكبر وأكثر اتساعا ، وهي مسقفة بأقبية وتنتهي في آخرها بفتحة مزغل.

أما النوع الثاني من الأبراج فهو عبارة عن أبراج مستطيلة المسقط أو مربعة ، تتكون من ثلاثة طوابق يتشابه كل من الطابقين السفلي والأوسط ويتكون كل منهما من قاعة رئيسية مربعة مغطاة بقبو متقاطع عليها أربعة أذرع . زودت بمزاغل عبارة عن فتحات ضيقة مدببة.

ويحتوي كل طابق على بعض المرافق والمنافع الخاصة به . أما الطابق الثالث فيمثل سطح البرج وتحيط به دروة تحتوي على دخلات بنهايتها فتحات المزاغل

وقد وسعت فتحات المزاغل أثناء احتلال الفرنسيين للقلعة لتتناسب مع فوهات المدافع .

تعتبر قلعة الجبل بأسوارها وأبراجها من أبرز الأعمال الدفاعية الأيوبية ، وإن تعددت أنماط وأشكال هذه الأبراج سواء في المسقط أو الواجهات أو حجارة الإنشاء ، فقد استخدمت في إنشاء الأسوار ، الأحجار التي يعتقد أنها جلبت من بعض الأهرام الصغيرة في الجيزة.

وقد استخدمت هذه الأحجار بأشكال مختلفة فبعض منها استخدم مصقول الوجه ، كما في الأبراج التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي ، بينما استخدمت حجارة مسنمة في الأبراج التي أنشئت في عهد أخوه العادل أو في عهد محمد على .

المحاضرة الرابعة - الفرقة الأولى - مادة الآثار والحضارة الإسلامية - د. احمد سعيد
الفنون الإسلامية:

تأثر المسلمون في بداية العصر الإسلامي بفنون الحضارات السابقة وخاصة تلك الحضارات التي غزاها الإسلام [راجع مصادر الآثار الإسلامية (الحضارات السابقة)] حيث استمرت الأساليب الفنية السائدة في هذه الحضارات في فنون الإسلام بصورة واضحة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة .

وقد وصلتنا نماذج من هذه الفترة تعكس بوضوح مدى التأثير بالفنون البيزنطية وعناصرها الزخرفية وكذلك الفنون الساسانية والقبطية .

وبمرور الوقت كانت حدة هذه التأثيرات تقل شيئا فشيئا وكان الفنان المسلم يحاول أن يستفيد من فنون تلك الحضارات ويمزجها ببعضها وينتقي ويطور في الأساليب الفنية حتى أخرج لنا الفن الإسلامي الخالص .

وتعد مدينة سامرا التي أسسها المعتصم سنة ٢٢١ هـ واستمرت عاصمة للخلافة العباسية ما يقرب من خمسين عاما حلقة الوصل في هذا المجال ، حيث احتوت هذه المدينة على مصبوبات جصية وزخارف محفورة على الجص تمثل مراحل الانتقال من الفن الإسلامي المتأثر بالحضارات السابقة إلى الفن الإسلامي ذو الطابع الخاص ، وأغلب الزخارف هذه نباتية عبارة عن أوراق وتفرعات العنب وكذلك المراوح وأنصاف المراوح النخيلية .

وقد اصطلح الباحثون على تقسيم تلك الزخارف الجصية وأنواعها المختلفة بسامرا إلى ثلاثة أقسام وسميت بطرز سامرا على الجص وتميز كل طراز فيها بخصائص

الطرز الأول : يتميز الحفر فيه بأنه بارز وواضح وهو استمرار للتقاليد المتبعة في الزخرفة قبل سامرا حيث القرب من الطبيعة ووضوح التفاصيل في المنحوتات ، فتظهر تفرعات العنب والأوراق النباتية بصورة قريبة من الطبيعة واهتم الفنان بإبراز تفاصيلها الدقيقة عن طريق الحفر على مستويات فبعضها بارز وبعضها قليل البروز وبعضها عبارة عن حزوز صغيرة وكأنه يرسم التشعبات داخل الورقة النباتية أو المروحة النخيلية ذاتها .

الطرز الثاني : كانت هناك رغبة في إنجاز تلك الزخارف في وقت أقل لحاجة الخليفة إلى الانتقال إلى عاصمته الجديدة وهنا بدأ الفنان لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة فظهرت الزخارف خالية من التفاصيل ، كما قلت مستويات الحفر ، بل كان الحفر كذلك قليل البروز .

الطرز الثالث : لتلبية الحاجة إلى الانتهاء من الأعمال بمدينة سامرا في أقل مدة ممكنة لجأ الفنان إلى أسلوب آخر في عمل زخارفه الجصية وهو أن يصنع قوالب من الخشب ويحفر فيها الزخارف بوضع مقلوب ثم يصب الجص اللين في هذه القوالب وبعد أن يجف يتم نزعها فتظهر الزخارف على الجص بصورتها المعتدلة وذلك ليوافر الوقت . ولم يستطع الفنان أن يحفر زخارفه بشكل بارز وفي زوايا قائمة وبمستويات لأنها ببساطة كانت تتعرض للتهشم في هذه الحالة عند إخراجها من القالب الخشبي فلجأ إلى حفر الزخارف بطريقة مائلة أو مشطوفة وهذا الحفر المائل أو المشطوف هو المميز لأسلوب سامرا الثالث على الجص ، وبما أن الحفر جاء مائلا فقد كانت الزخارف محورة جدا عن الطبيعة وبعيدة تماما عن أصولها وكان الحفر بمستوى واحد تقريبا ، أي أن العناصر النباتية التي جاءت في طراز سامرا الثالث كانت عناصر زخرفية بحتة.

وقد انتقل هذا الأسلوب الجديد إلى معظم البلدان الإسلامية وظهر في مصر في زخارف جامع أحمد بن طولون .

واستمر هذا الأسلوب في تحوير الأشكال النباتية والبعد بها عن الطبيعة والتركيز على شكلها الزخرفي فأخذ الفنان المسلم يمزجها مع بعضها ويخرج بها أشكالا نباتية غاية في الدقة والروعة والجمال الزخرفي بحيث لا تستطيع أن تحدد بداية الزخرفة أو نهايتها .

وقد انتشر هذا الأسلوب على المصبوبات الجصية والمنحوتات الحجرية وكذلك زخارف الأخشاب وغيرها من التحف الفنية

وأخذت هذه الأشكال الفنية المحورة تتطور في العديد من البلدان وبمرور الوقت حتى ظهرت الزخرفة المعروفة بزخرفة التوريق العربية (أرابيسك) والتي هي من العلامات المميزة للفن الإسلامي .

الفخار والخزف :

الأواني الفخارية تصنع من طينة طبيعية حيث تشكل الآنية ويتم زخرفتها وهي لينة ثم تحرق وتستعمل بهذه الصورة . أما الخزف فطينته منتقاه ثم يضاف إليها مادة الكولين وبعد تشكيلها تجري عليها العديد من الأعمال والإضافات إذ يتم وضع طبقة من الدهان لسد المسام وبعد الحرق عادة ترسم الزخارف وتترك حتى تجف ثم تطلّى بطبقة أخرى زجاجية وتحرق مرة أخرى ، وقد تختلف طرق الصناعة والزخرفة من نوع إلى آخر .

طرق الصناعة :

يتم إعداد الطينة وخلطها بالماء جيدا ثم تؤخذ منها قطعة بالحجم المطلوب وتصنع بإحدى الطرق الآتية:

- ١ - التشكيل باليد : وهي طريقة بدائية تستخدم في الأواني البسيطة .
 - ٢ - الصب في قالب : إذ يكون هناك قالب إما من الخشب أو الحجر وعادة من الخشب على شكل الآنية يتم صب الطينة فيه لتأخذ الشكل المطلوب .
 - ٣ - السدولاب : وهي أكثر الطرق استخداما حيث يستخدم الصانع يديه ورجليه في الصناعة فيأخذ قطعة من الطين أو الصلصال أو العجينة وتوضع في مكان مخصص لها في هذه الآلة ثم يدير الصانع بقدميه من أسفل عن طريق الضغط تلك الآلة فتنتقل الحركة عبر سير وعجلة دوارة إلى السطح العلوي فتدور العجينة في شكل أفقي ويستخدم الصانع يديه في حركات متقنة ليشكل الآنية بالشكل المطلوب .
- وبعد تشكيل الآنية بإحدى الطرق تترك حتى تجف ثم تحرق وتجرى عليها العمليات الصناعية والزخرفية حسب نوع الخزف المطلوب .

طرق الزخرفة :

هناك طرق عديدة ومختلفة للزخرفة تنوعت حسب نوع الخزف وهي:

- ١ - الصب : حيث تحفر الزخارف في القالب نفسه مقلوبة ثم تصب العجينة أو الصلصال في القالب وتترك حتى تجف ثم تخرج الآنية منه فتظهر عليها الزخارف .
- ٢ - الحز : وتتم الزخرفة بهذه الطريقة والآنية مازالت لينة وقبل أن تدخل الفرن لتحرق ، عن طريق عمل حزوز في بدن الآنية باستخدام بعض الأدوات لتتشكل بذلك الزخارف .
- ٣ - الحفر : ويتم أيضا والآنية لينة وفيه تزال بعض الأجزاء من بدن الآنية طبقا لشكل الزخارف .
- ٤ - الإضافة : فقد يقوم الصانع بزخرفة آنيته بإضافة قطع أخرى من الصلصال ذات أشكال مختلفة إلى بدن الآنية نفسها .
- ٥ - الختم : بأن ينقش الزخارف على خاتم معدني أو خشبي ويختم بدن الآنية وهي لينة فتظهر فيها الزخارف .
- ٦ - التخريم أو التفريغ : وهي أن يشكل الزخارف على بدن الآنية عن طريق تفريغها أو تفريغ ما حولها .

٧- الرسم : وهي أكثر الطرق استعمالا في زخرفة الخزف الإسلامي وقد تعددت أنواع وأساليب الرسوم وعادة ما تتم هذه الرسوم بعد إضافة طبقة الدهان وحرق الآنية ثم يضاف فوق الرسوم طبقة من الطلاء الزجاجي الشفاف ليحفظ هذه الرسوم . وكانت الزخارف تتم بلون واحد أو ألوان متعددة أو بأكاسيد معدنية طبقا لنوع الخزف .

أنواع الزخارف :

ظهر على الخزف الإسلامي كل أنواع الزخارف المعروفة فوجدت الزخارف النباتية بأنواعها وكذلك الزخارف الكتابية بخطوط متعددة تبعا لنوع الخط السائد في العصر الذي صنعت فيه الآنية أو التحفة الفنية فوجدت الخطوط الكوفية والنسخية وخط الثلث المملوكي وخطوط أخرى كثيرة في أنحاء العالم الإسلامي كما ظهرت الزخارف الحيوانية والآدمية والهندسية ومناظر ورسوم البحار والأنهار ومناظر الحياة اليومية وغيرها من الرسوم التي انتشرت بصورة زخرفية رائعة على الخزف الإسلامي .

أهم أنواع الخزف :

نظرا لأن الخزف الإسلامي قد تعددت أنواعه من بلد لآخر ومن عصر لآخر ويصعب علينا هنا سرد كل هذه الأنواع فسندكر أهمها في العالم الإسلامي بصورة مبسطة .

١- الخزف ذو البريق المعدني : من أهم أنواع الخزف الإسلامي ، وهو ابتكار إسلامي فلم يوجد في أية حضارة سابقة على الإسلام .

وكان السبب في ابتكاره أن الإسلام يحرم استخدام أواني الذهب والفضة في الطعام والشراب ، لذلك حاول الصانع والفنان المسلم أن يبتكر أواني تشبه الذهب والفضة وهو ما وفق فيه بابتكاره الخزف ذي البريق المعدني ، وهناك اختلاف بين الباحثين حول الموطن الأصلي لصناعته والذي انتشر منه إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي ، فيذكر البعض أنه ابتكر في إيران والبعض الآخر يقول أنه ظهر لأول مرة في سامرا ويذكر فريق ثالث أنه صنع أولا في الفسطاط بمصر .

وطريقة صناعة هذا النوع تتم بأن تشكل الآنية وتطلى بالدهان ثم تحرق ويعداها يتم الرسم عليها بمحاليل الأكاسيد المعدنية ثم تدخل الفرن ثانية في درجة حرارة بسيطة ثم يطفأ الفرن وتلقى فيه قطعة من القار فتحدث عملية اختزال نتيجة للدخان المتصاعد حيث يتحد الأكسجين على سطح الآنية مع الدخان المتصاعد (أول أكسيد الكربون) ليكون ثاني أكسيد الكربون ويبقى اللون المعدني الذي يظهر غاية في النقاء على بدن الآنية لذلك يسمى الخزف ذي البريق المعدني ، ثم تطلّى الآنية بطبقة الطلاء للحفاظ على الزخارف المعدنية اللون ، وكانت أكثر الألوان السائدة هي الأصفر والأحمر النحاسي والذهبي والقصديرى .

وقد تعددت الألوان والزخارف تبعا لمكان الصناعة ففي مصر وجدت الزخارف الآدمية حيث مناظر الشراب والرقص على الخزف المنتج في العصر الفاطمي بالإضافة للزخارف الحيوانية التي تمثل مناظر الصيد والافتراس وأشكال الحيوانات الخرافية وأيضا الزخارف النباتية والهندسية والكتابية [لوحة ١] ، وكان يتم ذلك غالبا باللون الأصفر الذهبي أو البني أو الأحمر النحاسي على أرضية قصديرية.

وقد انتهت صناعة الخزف ذي البريق المعدني في مصر إثر حريق الفسطاط التي كان بها مصانع هذا النوع من الخزف وذلك في أواخر العصر الفاطمي أثناء النزاع الذي حدث بين الوزيرين شاور وضرغام .

وقد تواجدت واستمرت صناعة هذا النوع في بقية أنحاء العالم الإسلامي فازدهرت في إيران ووجدت نماذج للبريق المعدني من عصور متأخرة ظهرت فيها الملامح المغولية وخطوط التعليق ، وإلى جانب الزخارف المعروفة ظهرت رسوم بالبريق المعدني على بلاطات خزفية تشبه صور المخطوطات وتمثل مناظر لأمرأء في رحلات صيد أو مجالس سمر .

كما وجد البريق المعني في بلاد الشام وبلاد الأندلس وشمال إفريقيا وتعددت أشكال التحف الفنية فصنعت منه القدور والصحون والمزهريات والبلاطات الخزفية التي كسيت بها الحوائط وكذلك المحاريب الخزفية والتماثيل وغيرها من الأشكال .

٢- خزف تقليد البورسلين الصيني : وجد هذا النوع منذ بداية العصر الإسلامي وانتشر في العصر السلجوقي واستمر عبر العصور ، وفيه حاول الصانع المسلم تقليد البورسلين الصيني غير أنه يسهل التفرقة بينهما حيث أن سمك البورسلين الأصلي رفيع وطنيته نقية بيضاء ورسومه صينية بحتة ، في حين أن البورسلين المقلد سميك وطنيته محلية وقد حاول الفنان تقليد الزخارف الصينية فظهرت أشكال التين والسحب الصينية (تشى) ورسوم نباتية أخرى وذلك باللون الأزرق وأحيانا الأخضر على أرضية بيضاء .

٣- الفخار المطلي " فخار مطلي مزجج " أو " مطلي بالمينا " : وهو نوع من الفخار شاع في مصر في العصر المملوكي ويتميز بأن جدار الآنية سميك ولونه بني أو أحمر وهو بذلك أقرب إلى الفخار غير أنه مطلي بطبقة سميكة من الطلاء الزجاجي ومزخرف بزخارف رائعة نباتية وكتابية ، والكتابية هي الأهم إذ تنتشر على بدن الآنية وهي كتابات بخط الثلث المملوكي عبارة عن عبارات دعائية وكتابات باسم الأمراء مما يعني أن هذا النوع شاع استخدامه في بيوت أمراء المماليك ، كما يحتوي كذلك على رنوك وظيفية ترمز لوظيفة الأمير صاحب الآنية [لوحة ٢] .

والرنك : هو شارة أو شعار يرمز للملوك والسلطين والأمراء وقد انتشرت هذه الرنوك في مصر في العصر المملوكي واتخذ كل سلطان شعار خاص به قد يكون تصويري كرنك السبع الذي اتخذه بيبرس شعارا له ، وغالبا ما تكون رنوك السلطين كتابية تحتوي على اسم السلطان ولقبه . أما رنوك الأمراء فهي تصويرية لتعبر عن الوظيفة التي تولها الأمير في الدولة ، فرنك السيف يرمز إلى وظيفة السلحدار أي ممسك السلاح وهو المختص بخزائن الأسلحة والحراسة الخاصة بالسلطان ، ورنك الكأس يرمز إلى وظيفة الساقى وهي وظيفة يتولاها أمير يشرف على موائد الطعام والشراب الخاص بالسلطان ، ورنك عصا البولو ترمز لوظيفة الجوكندار أي ممسك العصا للسلطان حيث يتولى الأمير حمل عصا البولو للسلطان أثناء خروجه للعب ، وهكذا تعددت الرنوك ثم بعد ذلك أصبحت رنوك مركبة يقوم فيها الأمير بوضع كل الشارات التي تعبر عن الوظائف التي تولها في الدولة .

وقد آمدنا هذا النوع من الفخار بأشكال عديدة لرنوك وظيفية .

٤- الخزف التركي : قلد الأتراك في البداية الخزف الصيني والإيراني ، ثم في القرن السادس عشر الميلادي أصبح للخزافين الأتراك أسلوب واضح ومميز في الصناعة والزخرفة وازدهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر مدن بعينها في هذه الصناعة مثل أزيق وكوتاهية ، وامتاز هذا النوع باستخدام الألوان الزرقاء بدرجاتها المختلفة والخضراء وكذلك الأصفر والأحمر الطمطمى ، وكانت الزخارف عبارة عن الأوراق النباتية المسننة ورسوم التفريعات النباتية المزهرة بأزهار القرنفل وزهرة التوليب " اللالا " وأشجار السرو وأنواع الورود المختلفة ورسوم المزهرات التي تخرج منها هذه الفروع النباتية المزهرة [لوحة ٣] .

كما صنع الأتراك البلاطات الخزفية سواء بلون واحد أو بالطريقة السابقة واستخدموها في الزخرفة المعمارية في المساجد وغيرها .

الأخشاب :

البيئة العربية فقيرة في الأخشاب الجيدة لذلك لجأت البلدان الواقعة في مثل هذه البيئة إلى استيراد الأخشاب الجيدة من الهند ومن آسيا الصغرى وبلاد الشام .

وقد مرت زخرفة الأخشاب بالمراحل التي مر بها الفن الإسلامي في بدايته وتطوره ، فظهرت الزخارف في البداية متأثرة بالفن البيزنطي والهلينستي والساساني حتى ظهر طراز سامرا الثالث على الجص وانتقل منه إلى زخرفة الأخشاب وظهر الطراز الإسلامي الخالص وزخارف الأرابيسك الرائعة [لوحة ٤] وبداية من العصر الفاطمي بدأت تظهر الحشوات الهندسية المجمعة والمحفور عليها زخارف نباتية أو كتابية بالخط الكوفي مثلما نجد في باب باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

كما وصلنا من هذا العصر حشوات خشبية وجدت في بيمارستان قلاوون لكنها فاطمية الأصل تمثل مناظر صيد وشراب ورقص وصور للحياة اليومية وذلك على أرضية نباتية وكانت هذه الحشوات تزين القصر الغربي الصغير .

ومن العصر الفاطمي أيضا محرابا السيدة نفسية والسيدة رقية ويظهر فيهما الحشوات الخشبية التي تأخذ أشكالا هندسية تمثل الارهاصات الأولى للطبق النجمي بالإضافة إلى الزخارف النباتية والكتابات الكوفية المتقنة.

وفي العصر الأيوبي : نجد استمرار للتقاليد الفاطمية مع ظهور الخط اللين بدلا من الكوفي في زخرفة الأخشاب مثلما هو موجود بتركيبة الإمام الشافعي ، كذلك نلاحظ أن الزخارف النباتية أكثر اتقاناً [لوحة ٥].

أما العصر المملوكي فقد تم ابتكار أشكال نباتية جديدة من المراوح النخيلية ، وظهر الحفر على مستويات وتميز هذا العصر بالمنابر الخشبية الرائعة التي صنعت بطريقة الحشوات المجمعة المطعمة بالعاج والصدف والأبنوس وسن الفيل وكونت هذه الحشوات الزخرفة الهندسية التي من مميزات زخارف الأخشاب الإسلامية ومن علامات الفن المملوكي وهي زخرفة " الطبق النجمي".

ووجدت كذلك الأحجية الخشبية المصنعة بطريقة الخرط والتي كان منها النوع الشهير المعروف بالمشربيات ، والتي استخدمت لتغطية الفتحات في البيوت والمنازل .

والخرط أنواع اشهرها : الخرط الميموني حيث وحدات الخشب صغيرة ودقيقة معشقة مع بعضها لتكون الشكل المطلوب وهذا النوع هو المستخدم عادة في المشربيات .

والخرط الصهاريحي حيث وحدات الخشب الكبيرة والتي تستخدم عادة مفردة مثلما نجد في الدريزينات .

المعادن :

ازدهرت صناعة الأدوات والأواني المعدنية في العصر الإسلامي ، وأبدع المسلمون في أساليب صناعة وزخرفة المعادن واستخدموا كل الأساليب المعروفة في الزخرفة ، وظهرت مراكز صناعية في أنحاء العالم الإسلامي تخصصت في الصناعات المعدنية وتفنن الصناع بها في تشكيل وزخرفة الأواني المعدنية كمدينة الموصل التي وصلتنا منها العديد من التحف المعدنية التي تحمل توقيعات الصناع .

وقد استخدمت أنواع عديدة من المعادن في الصناعة كالذهب والفضة الذين صنعت منهما الحلّي والأقراط وسكت منهما العملة واستخدما في تكفيت المعادن الأخرى ، وهناك البرونز والنحاس وصنعت منهما الأباريق والبطوس والصواني والأسطال والقذور والاسطرلابات والأدوات الفلكية والجراحية . أما الحديد فصنعت منه السيوف والدروع والخوذات وغيرها من آلات القتال.

طرق التشكيل والصناعة :

١ - طريقة الصب : حيث تجهز قوالب بشكل الآنية أو الأداة المراد صنعها ويصب المعدن وهو مصهور في هذا القالب ، وبعد أن يبرد ويجف المصهور ينزع القالب وتخرج الآنية.

٢- طريقة السحب والطرق : وفيها يتم تسخين القطعة المعدنية حتى تصبح لينة ثم يتم الطرق عليها بآلات خاصة لتأخذ الشكل المطلوب.

طرق الزخرفة :

وصلتنا تحف عديدة من أنحاء العالم الإسلامي مزخرفة بطرق شتى ومنها :

١- الزخرفة عن طريق الصب : حيث تنقش الزخارف في قالب الصب ، وعند صب المصهور من المعدن تطبع الزخارف فوق سطحه .

٢- الزخرفة بالنقش : ويقوم الصانع في هذه الطريقة بالحفر على سطح الآنية أو الأداة بعد تشكيلها ، ويستخدم في ذلك أدوات خاصة ومطارق صغيرة ويصنع بذلك الزخارف التي تبدو غائرة عن سطح الإناء .

٣- الزخرفة بالتفريغ : إذ يقوم الصانع بإزالة قطع من بدن الإناء نفسه لتظهر الزخارف .

٤- الزخرفة بالتكفيت : وهي أشهر الطرق المستخدمة في الزخرفة في العصر الإسلامي ووصلتنا تحف غاية في الروعة والاتقان مصنعة ومزخرفة بهذه الطريقة ، وتتم هذه الطريقة بحفر أخاديد عميقة في بدن الإناء ثم توضع أسلاك معدنية من معدن آخر غالبا يكون أعلى قيمة من معدن الآنية نفسها وفي معظم الأحيان استخدمت أسلاك الذهب والفضة في التكوين ، وبعد أن توضع هذه الأسلاك يقوم الصانع بالطرق عليها جيدا حتى تستقر وتثبت في موضعها ومن هنا تبدو الزخارف بلون والآنية بلون آخر.

٥- الزخرفة بالمينا : أحيانا تزخرف القطع المعدنية عالية القيمة بأقراص من المينا الزجاجية .

٦- الترسيع بأحجار كريمة : وتستخدم في الحلي المعدنية غالية الثمن حيث يتم خلق تجويف في جسم القطعة المعدنية يوضع فيه الحجر ويثبت بأجزاء من المعدن نفسه .

٧- الزخرفة بالأسلاك أو القطع الصغيرة المضافة : فقد تصنع الأقراط الذهبية من قطع من الأسلاك ممزوجة ببعضها لتشكل زخارف متعددة أو تلتصق قطع صغيرة من المعدن لتشكيل الزخارف وهي طريقة نادرة.

أنواع الزخارف : [لوحة ٦]

شاعت على التحف المعدنية كل أنواع الزخارف ونفذت بدقة واتقان وتميز كل عصر وكل قطر بشيوع نوع معين من الزخرفة على المعادن .

ومن هذه الزخارف :

الزخارف النباتية : إذ نفذت بالطرق السابقة زخارف الأزهار والفروع النباتية والوريدات ذات البتلات وغيرها من الزخارف التي قلما يخلو إناء معدني منها .

الزخارف الكتابية : ووجدت على التحف المعدنية في كل أنحاء العالم الإسلامي وتميز كل إقليم بنوع معين من الخط أشهرها خط الثلث المملوكي الذي شاع في زخرفة التحف المعدنية المملوكية إذ كان الخط يكتب على بدن التحفة بالأسلاك الذهبية أو الفضية بطريقة التكفيت ، وهناك أيضا نوع من الخط تنتهي حروف المد فيه بأشكال رؤوس آدمية وهو نوع شاع في معادن الموصل وإيران انتقل إلى مصر في العصر المملوكي مثلما نجد في رقبة شمعدان كتبغا من العصر المملوكي البحري .

وكان مضمون هذه الكتابات إما آيات قرآنية خاصة بوظيفة التحفة مثل المشكاوات والتنانير التي استخدمت في إضاءة المساجد وكتب عليها عادة " الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح إلى آخر الآية الكريمة " ، أو تكون الكتابات عبارات دعائية لصاحب التحفة أو أبيات شعرية وغير ذلك .

*الزخارف الآدمية : وتمثل مناظر الصيد والمصارعة الشراب ومناظر لفرسان وغيرها .

*الزخارف الحيوانية : إذ عثر على نماذج عليها صور لكلاب الصيد أو رسوم أسود وخيول وغيرها من الحيوانات التي وجدت في البيئة التي صنعت فيها التحفة المعدنية .

*الزخارف الهندسية : وجدت بأشكالها المختلفة وأحيانا ما نفذت بالتفريغ وخاصة في التنانير الضخمة التي كانت تعلق في المساجد وتثبت بها أواني الإضاءة الزجاجية ، كما شاع نوع من الزخارف الهندسية تسمى زخرفة "الدقماق" على التحف التي تنسب إلى الموصل .

الزجاج والبلور :

كانت هناك مناطق شهيرة بصناعة الزجاج قبل الإسلام مثل مصر وسوريا واستمرت هذه المناطق الصناعية في العصر الإسلامي ويصنع الزجاج من مادة السليكا وهي مادة رملية . وهناك نوع شبيه بالزجاج يسمى البلور الصخري وهذا النوع يعثر عليه في الطبيعة فهو غير مصنع ولكنها أحجار شفافة تكونت بفعل حرارة عالية وهذا البلور الطبيعي نادرا جدا لذلك قيمته عالية . طرق صناعة الزجاج :

- ١ - الصب في قالب : تصهر المادة الخام وتصب في قوالب بالشكل المطلوب .
- ٢ - النفخ في القالب : يوضع المصهور في القالب ويتم النفخ فيه بأنبوب لتشكل القطعة .
- ٣ - النفخ في الهواء : توضع قطعة من الزجاج اللين في طرف أنبوب طويل وينفخ الصانع من الطرف الآخر ويحرك القطعة في الهواء حركات دائرية ليشكلها بالشكل المطلوب ، ويحتاج في هذه الحالة أن يدخلها إلى الفرن بين الحين والآخر لتظل لينه حتى يتم تشكيلها نهائيا . طرق الزخرفة :

- ١ - الصب في القالب : تنقش الزخارف في القالب ويصب المصهور الزجاجي فتطبع الزخارف على القطعة الزجاجية .
- ٢ - الإضافة : ويتم فيها إضافة أسلاك زجاجية لينة إلى بدن الآنية الزجاجية أو حول رقبتها بأشكال زخرفية ، أو يتم وضع قطع من الزجاج اللين إلى بدن الآنية لإعطائها شكلا زخرفيا .
- ٣ - الختم : أحيانا تزخرف الآنية وهي لينة بختمها بخاتم عليه نقوش وزخارف .
- ٤ - الملقاط : وهي أداة معدنية يستخدمها الصانع ليشكل بها زخارف في بدن الآنية خاصة وهو ينفخها في الهواء .
- ٥ - الحفر بالعجلة الدوارة : وتستخدم هذه الطريقة مع الزجاج السميك ومع الزجاج المقلد للبلور الصخري حيث يعرض سطح الآنية لهذه العجلة الدوارة التي تكشط أجزاء منه لتشكل الزخارف المطلوبة .
- ٦ - المينا والأكاسيد المعدنية : وهي طريقة مبتكرة ابتكرها الصانع والفنان المسلم وظهرت قبل العصر الفاطمي وازدهرت في العصرين الأيوبي والمملوكي حيث يتم الرسم على سطح الآنية باستخدام المينا متعددة الألوان أو بالأكاسيد المعدنية ثم تعرض لدرجة حرارة معينة لتثبيت هذه الزخارف المرسومة . أنواع الزخارف :

استمرت أساليب وأنواع الزخارف السائدة قبل الإسلام في بداية العصر الإسلامي ، ثم وجدنا أواني تنسب للعصر الإسلامي المبكر وزخارفها بسيطة عبارة عن أشكال تشبه خلية النحل وأشكال هندسية ورسوم طيور وحيوانات بسيطة ، كذلك وجدت زخارف بالأسلاك حول رقبة الأواني .

ومع بداية العصر الفاطمي : ظهر التمويه بالمينا والأكاسيد المعدنية ، وتمثلت الزخارف في كتابات كوفية وتفريعات وأشكال هندسية باللون البني والفضي ، ومنذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي استخدمت ألوان متعددة في الزخرفة مثل الذهبي والنحاسي وغيرها وهي تشبه مثيلاتها المستخدمة على الخزف ذي البريق المعدني .

كما كان يرسم زجاجي العصر الفاطمي بماء الذهب على الإناء ويحدد الزخارف بعد ذلك بالخدش بالإبرة. وقد وصلتنا من العصر الفاطمي مجموعة من الكؤوس من البلور الصخري غاية في الروعة والجمال تمت الزخرفة عليها بطريقة الحفر وتمثلت زخارفها في رسوم أسود وعقبان ورسوم نباتية [لوحة ٧] .

كما وجدت كذلك بعض القطع الزجاجية المقلدة للبلور الصخري وأشهرها كؤوس تعرف بكؤوس القديسة هديج . وفي العصر الأيوبي : تألفت سوريا في صناعة الزجاج المموه بالمينا وتمثلت الزخارف في رسوم مناظر الصيد ومناظر الفرسان والزخارف النباتية بالإضافة إلى ظهور الخط اللين بدلا من الخط الكوفي في الزخارف الكتابية.

أما في العصر المملوكي : فقد استمرت طريقة الزخرفة بالمينا ووجدت نماذج رائعة امتلأت بها متاحف العالم حيث أقبل الحجاج الأوروبيون على شراء مثل هذه الأواني الزجاجية من الشرق وحملوها معهم لدى عودتهم.

ومن أهم ما يميز زجاج العصر المملوكي تلك المشكاوات الزجاجية الرائعة والتي كانت تستخدم للإضاءة في المساجد والمدارس وغيرها من المنشآت ، وقد احتوت هذه المشكاوات على زخارف كتابية بخط الثلث المملوكي عبارة عن آيات قرآنية من سورة النور " الله نور السموات والأرض " أو كتابة باسم صاحب المنشأة أو التحفة سلطان أو أمير ، كما ظهرت عليها الرنوك سواء كتابية أو وظيفية . هذا بالإضافة إلى الزخارف النباتية المتقنة [لوحة ٨ ، ٩] .

ثم بدأت هذه الصناعة تتدهور في أواخر العصر المملوكي الجركسي وأخذت مدينة البندقية تنافس مصر في صناعة الزجاج المموه حيث وجدنا مشكاوات تحمل اسم السلطان قايتباي ويبدو من طريقة الصناعة وأسلوب الكتابة الغير متقن أنها صنعت خارج مصر ويرجح أنها صنعت لهذا السلطان بمدينة البندقية .

المحاضرة الخامسة - أولى اثار - مادة الاثار والحضارة الاسلامية - د. احمد سعيد المسكوكات الاسلامية:

السكة :

يعبر لفظ السكة عن معان متعددة تدور كلها حول النقود التي تعاملت بها الشعوب الإسلامية من دنانير ذهبية ودرهم فضية وفلوس نحاسية ، فيقصد به حيناً تلك النقوش التي تزين بها هذه النقود ، وأحياناً أخرى يعنى قوالب السك التي يختم بها على العملة المتداولة ، كما يطلق على الوظيفة التي تقوم على سك العملة تحت إشراف الدولة ، غير أن المعنى الشائع هو إطلاق كلمة السكة على النقود العربية الإسلامية التي تضرب في دور السك والتي أصبحت وسيلة التعامل الرئيسية في العصور الوسطى بين مختلف شعوب العالم.

اختراع النقود :

لم يعرف الإنسان البدائي في فجر التاريخ التعامل بالنقود حين كان يعيش على الصيد والجمع والالتقاط في الغابات والبراري ، ثم بعد حياة الاستقرار واشتغاله بالزراعة والرعي وانخراطه في سلك الجماعة وجد الإنسان نفسه مضطراً إلى التفكير في الأخذ والعطاء وظهرت عملية التبادل بين الأفراد والجماعات على أساس سلعي ، أي يتم البيع والشراء عن طريق مبادلة بضاعة أو منتج بمنتج آخر .

ثم في تطور لاحق قامت المبادلة في الجماعات البشرية على اختيار مادة أو منتج تؤدي مهمة الوساطة في عمليات البيع والشراء وغيرها ، ففي الصين مثلاً استعمل المحار على أنه الوسيلة الرسمية للتبادل حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، وفي بلاد اليونان لعب الثور دوراً مهماً في التبادل التجاري . أي أن وسائط التبادل هذه كانت تختلف من بلد إلى آخر تبعاً لظروفها ومدى انتشار هذه السلع التبادلية بها أو ندرتها ، فقد استخدمت مجتمعات الأرز كوسيط للتبادل واستخدمت أخرى الشاي أو الجلود أو الخيول أو العبيد أو الملح وغيرها كوسيط للمبادلة .

وهذا الدور هو ما تفعله النقود حالياً ، غير أنه في حالة الوسائط السابقة العديد من العيوب أهمها أنها قابلة للتلف ، كما واجه الإنسان صعوبة في تجزئة الوسائط في المعاملات التجارية البسيطة.

وهو ما وجه الفكر الإنساني إلى اتخاذ المعادن وسيطاً للمبادلة حيث أن معيارها ثابت ، ولا تتعرض للتلف ، ولا تحتاج المعادن إلى نفقة في حفظها ، كما أنها تتحمل عوادي الدهر مدداً طويلة ، وتمتاز بسهولة الحمل والنقل من مكان لآخر ، فضلاً عن أنها قابلة للتجزئة لتوافق مختلف الأغراض والعمليات التجارية .

وهكذا اتجهت الجماعات إلى إعداد المعادن بأوزان معلومة مقدرة تحت مسئولية أصحابها الذين نقشوا عليها أسماءهم أو ميزوها بعلامات خاصة ، وتولت الدولة الإشراف على هذه العلامات فختمت القطعة بخاتم الدولة كي تصبح " نومسما " أي قانونية (من اليونانية **Nomos** أي القانون) ليأمن الناس الغش والتزييف في نقود الذهب والفضة ، ثم تولت الدولة سك العملة دون أجر أول الأمر ، ويعدها وجدت أنه من دواعي الكسب المادي وتعزيز السلطة أن تشتري الدولة المعادن وتضربها لحسابها الخاص بوزن وعيار معينين وأن تمنع غيرها من الأفراد من سك هذه العملات .

ويجمع الكثيرون على أن الليديين بآسيا الصغرى في عهد كرويسوس **Croesus** أو قارون الليدي ٥٦١ - ٥٤٦ ق.م هم أول من سك النقود المعدنية من الذهب والفضة .

وقد انتشرت هذه العملات النقدية من ليديا عن طريق المدن الساحلية إلى بلاد اليونان حيث تطورت هذه النقود إلى أقصى درجات التطور الفني ، وانتشرت على أيدي التجار ، مما دعى بقية الأمم والشعوب إلى الأخذ بهذا النظام ، وقد اتخذت كل دولة رمزاً لها فنقشته على النقود .

وهكذا حتى قامت الدولة الإسلامية فكان لها نقدها الخاص .

أهمية دراسة النقود الإسلامية لعلوم التاريخ والآثار :

اعتبرت النقود في العصر الإسلامي دليل على السلطة ، فقد كانت رمزا لتولي الحكم إذ يضرب الحاكم بمجرد توليه السلطة النقود وعليها اسمه وألقابه ليعلن بذلك بداية عهده ، ففي العصر الإسلامي كان الدعاء للحاكم في صلاة الجمعة وكتابة اسمه على السكة وشريط الطراز هي بمثابة وسائل إعلام بتبعية هذه الأماكن لسلطته ، وبناء عليه فقد امدتنا المسكوكات الإسلامية على اختلاف أنواعها بسلسلة متصلة لأسماء الخلفاء والسلاطين والملوك والحكام ومدة حكمهم .

وباحتواء النقود على الأسماء ومدد الحكم فهي تكمل الثغرات في سلسلة الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي إذ هي وثائق يصعب الطعن فيها ، فعندما تظهر وحدة نقدية وعليها اسم حاكم وتاريخ الضرب ومكانه تمكنا من حل بعض الخلافات التي قد تنشأ بين الباحثين بشأن الحكام وسنوات حكمهم .

وتظهر النقود مدى الامتداد الجغرافي للدول والمدة الزمنية لها ، فقد احتوت النقود على مكان الضرب فعندما يظهر اسم مدينة على مسكوكات دولة ما هو ما يعني تبعية هذه المدينة لها ومن خلالها نستطيع أن ندرك حجم هذه الدولة ومدى اتساعها ، ومن خلال تاريخ سك العملة الذي يرد عليها يمكننا تحديد المدة الزمنية التي خضعت فيها هذه المدينة لحكم تلك الدولة من عدمه .

تظهر المسكوكات كذلك بما تحتويه من ألقاب وعبارات دعائية ونصوص أخرى طبيعة الأوضاع السياسية والدينية والثقافية السائدة في الفترة التي ضربت فيها ، فمثلا ظهرت على نقود الفاطميين في مصر عبارة " على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين " وهو ما يظهر لنا طبيعة فكر هذه الدولة ومذهبها وهكذا .

وتعطي النقود تصور عن الأوضاع الاقتصادية للدولة ومدى رخائها أو فقرها ، فعادة ما يكون الوزن والعتاد جيد في الدول الغنية ، بينما تلجأ الأخرى إلى الإقلال من أحدهما أو كليهما أو تزيف العملة وخلطها بغيرها من المعادن الرديئة ، وفي هذه الحالة تكون قيمتها الاسمية أعلى من قيمتها الحقيقية وهو ما يحدث تخبطا وضررا بمن يتعامل بها ، ويحدث ضررا بالحالة الاقتصادية للدولة .

وقد كتبت الألقاب والعبارات على المسكوكات الإسلامية بالخط العربي وهو ما يعطينا صورة واضحة المعالم لتطور الخط والألقاب عبر العصور الإسلامية وفي مختلف الدول .

وتساهم المسكوكات في تأريخ الطبقات عند إجراء الحفائر الأثرية ، فالعثور على عملة عليها تاريخ محدد يساعد في تأريخ بقية التحف التي عثر عليها في نفس طبقة الحفر والتي لا تحتوي على تاريخ .

أنواع النقود الإسلامية :

هناك ثلاثة أنواع شهيرة من النقود الإسلامية وإن اختلفت مسمياتها أحيانا وهي :

أولاً: الدينار :-

كلمة مشتقة من اللفظ اللاتيني **Dinarius Aureus** وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية ، وكان هذا النوع من العملات مستعملا في الأقاليم البيزنطية وفي مصر والشام والمغرب ، وعرفه العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وكان عبارة عن قطعة مستديرة من الذهب تزن ٤.٢٥ جرام ، لها وجه عليه صورة هرقل في وضع المواجهة يتوسط ولديه هرقليانوس وقسطنطين ، وعلى رأس كل منهم تاج عليه صليب يرمز لشعار الكنيسة ويمسك في يده عصا المطرانية وعليها أيضاً صليب ، وقد يظهر الملك مع ولديه أو مع أحدهما دون الآخر ، أو يظهر بصورة نصفية ، ويوجد على الحد الخارجي من وجه العملة عبارات لاتينية دعائية ، أما نقوش ظهر الدينار فيتوسط الدائرة شكل مدرج يعطوه الصليب شعار الكنيسة ،

وأسفل المدرج الحروف الأولى من كلمة القسطنطينية بصيغة Cono.b وهي مكان ضرب هذه الدنانير وكان للدنانير أجزاء منها نصف دينار وثلاث دينار وربع دينار .

ثانياً: الدرهم :-

جمعها دراهم وهي وحدة من وحدات السكة الفضية استخدمت كنقد للدولة الساسانية وأخذت اسمها من اللاتينية Draxma وتعرف في الفارسية باسم "درم" ، والدرهم قطعة مستديرة من الفضة تزن ٢.٩٧ جرام وهي تساوي في القيمة سبعة أعشار الدينار الذهبي ، وكانت تنقش على وجه الدرهم صورة نصفية لكسرى الفرس في وضع جانبي وعلى رأسه التاج الساساني المجنح ، وأمام وجه الملك الفارسي كتب اسمه وألقابه باللغة البهلوية ، وخلف رأسه كتابات بهلوية دعائية ، وعلى هامش وجه الدرهم أربعة أشكال نجمية داخل أربعة أهلة ، وعلى ظهر الدرهم حفرت الشعلة المقدسة التي يرمز بها إلى معبد النار ، يحرسها حارسان مدججان بالسلاح ، وعلى يمين ظهر الدرهم كتابات بهلوية تحدد مكان الضرب ، وإلى اليسار كتابات تاريخ الضرب ، وللدرهم أجزاء معروفة منها نصف وثلاث درهم .

ثالثاً: الفلوس :-

الفلوس (جمعها فلوس) وهي كلمة مشتقة من أصل لاتيني وكانت متداولة في الدولة البيزنطية ، وتعني العملات النحاسية أو البرونزية التي يقبل التعامل بها عن طريق الوزن ، وكانت تضرب وفقاً لحاجة الشعب ، وتركت الدولة البيزنطية هذا الحق للولاة ليسجلوا عليها أسماءهم ومدن الضرب ، وقد أخذ وجه الفلوس الأشكال التي كانت تضرب على وجه الدنانير الذهبية مثل هرقل وهرقليانوس وقسطنطين ، أو صور نصفية لهم مجتمعين أو متفرقين أو مع أحد الأبناء ، أما ظهر الفلوس فكان يكتب عليه حرف M وأعلاها صليب ، وهذا الفلوس بوزن ٤٠ حبة من حبات الخروب ، ومنها نوع كان يضرب وعليه حرف I + B وأسفل هذا الرقم الذي يعني ١٢ نمية كتب مكان الضرب .

تعريب السكة في العصر الأموي :-

عرفت المنطقة العربية وبلاد الشام ومصر استعمال العملات الذهبية والفضية التي كانت سائدة قبل الإسلام ، وأقرها الرسول صلى الله عليه وسلم وتعامل بها كما هي دون تحوير أو تعديل ، وابتداء من عهد الخليفة عمر بن الخطاب ظهرت على العملات في هامشها كتابات عربية مثل " لا إله إلا الله " " الحمد لله " وأضاف إليها الخليفة عثمان بن عفان عبارة " الله أكبر " .

إلا أن أهم التغيرات الجوهرية التي حدثت بالسكة الإسلامية إنما حدثت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ : ٨٦هـ - ٦٨٥ : ٧٠٥م) الذي أحدث ثورة كبيرة ، بدأت بتعريب كل شئ بما في ذلك السكة ، وهنا يظهر سؤال ملح عن هذا التغيير الذي قام به عبد الملك بن مروان .

يذكر البيهقي في كتابه المحاسن والمساوي والدميري في كتابه حياة الحيوان ، والمقريزي في كتابه شذرات العقود ، وابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة آراء عن سبب تعريب السكة زمن عبد الملك ، وأرجعوا هذا التغيير إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان أمر بأن يكتب على أوراق البردي التي كانت تصدر من مصر إلى الدولة البيزنطية عبارة الشهادة " شهد الله أنه لا إله إلا هو " وذلك بدلاً من عبارة الثالون المقدس المسيحية " بسم الأب والابن والروح القدس " ، فلما وصلت هذه الأوراق إلى الإمبراطور جستنيان الثاني رفضها ، وهدد الخليفة عبد الملك بأنه إن فعل ذلك مرة أخرى فسيضرب جستنيان عملة عليها عبارات تسيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغضب عبد الملك من هذا التهديد ، وأشار عليه أهل الرأي بأن يضرب عملة جديدة ليس عليها صور للأباطرة والأكاسرة ، وإنما يكون عليها عبارات الشهادة والتوحيد والرسالة المحمدية .

والحق أن السبب الذى ذكره المؤرخون المسلمون لم يكن السبب الرئيسى فى التعريب الكامل للسكة ، فكتابات التوحيد ، والرسالة المحمدية ، والشهادة كانت موجودة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ومن بعده عثمان بن عفان ، ولم يعترض على ذلك الإمبراطور ، ولكن السبب الجوهرى الذى أدى إلى النزاع هو أن الخليفة عبد الملك بن مروان ضرب عملة ذهبية أزال من على وجهها صور الأباطرة ووضعت مكانها صورة لنفسه ، وهو متمنطق بسيف عربى ، وعلى الظهر كتابات الشهادة والرسالة المحمدية .

وكانت هناك معاهدة مبرمة بين الأمويين والبيزنطيين مفادها أن تدفع الدولة الأموية للدولة البيزنطية مبلغ مائة ألف دينار سنوياً نظير عدم التعرض لحدود الدولة الأموية المتاخمة لحدود الإمبراطورية (وذلك فى المدة التى أراد فيها عبد الملك أن يتفرغ للأحوال المضطربة داخل الدولة) ، فلما دفع عبد الملك نقوده الذهبية بهذه الصفة رفضها الإمبراطور البيزنطى ، إذ أن ضرب نقود ذهبية بصورة حاكم غير الإمبراطور أمر غير مقبول ، وفيه خروج لم يقدر عليه سوى الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكان الإمبراطور جستنيان يدافع عن هذا الحق كقاعدة عامة يجب إحترامها ، ولأن جستنيان رفض هذه العملات الجديدة التى ضربها عبد الملك تغيرت أشكال العملات تغيراً جذرياً نشير إليه فيما يلى :-

الدينار :- [لوحة ١٠]

مر الدينار البيزنطى بخمسة مراحل حولته من بيزنطى خالص إلى عربى خالص .

١- الدينار البيزنطى الخالص : ويزن ٤.٢٥ جرام ، على وجهة صور الأباطرة الذين سبق ذكرهم ، والمدرج الذى يرمز للكنيسة على الظهر ، وكان الضرب القسطنطينية .

٢- الدينار البيزنطى المحور : ضربت الدنانير على وجهها بنفس الأشكال القديمة ، هرقل مفرداً ، أو مع ولديه غير أنه حدث تغيير فى التاج الموجود على رؤوسهم وكذا عصى المطرانية التى فى أيديهم ، فقد إختفت الشارات المسيحية الواضحة ، وحل مكانها عامود بشكل كروى ، أما ظهر الدينار فقد ظل محتفظاً بشكل المدرج ، وكذا الكتابات ، إلا أن الشارة الكنسية (الصلب) قد إختفت وحل مكانها صارى ينتهى بشكل كروى ، أو صارى ينتهى بشكل حرف T ، واستمر مكان الضرب القسطنطينية التى يعبر عنها باختصار Cono.B .

٣- الدينار البيزنطى المغرب : ظل وجه الدينار فى هذه المرحلة كما هو بعد أن أزيلت منه الشارات الصريحة من على التيجان أو عصى المطرانية ، أما الظهر فحدث فيه اختلاف كبير ، فوجد فى مركز الظهر مدرج ينتهى بشكل عامود له رأس كروية ، وعلى هامش الظهر كتابات عربية بالخط الكوفى البسيط بصيغة البسملة (بسم الله) والشهادة (لا إله إلا الله وحده) والرسالة المحمدية (محمد رسول الله) .

٤- الدينار العربى : لما قبلت الدولة البيزنطية المرحلة الثالثة من تغيير ظهر الدينار تجرأ الخليفة عبد الملك بن مروان وأزال صور الأباطرة من على وجه الدينار ، وضرب صورته وهو متمنطق بسيف عربى وشعره مفرق مرسل ، وعلى هامش الوجه نقشت عبارة البسملة (بسم الله) والشهادة (لا إله إلا الله وحده) والرسالة المحمدية (محمد رسول الله) ، وعلى ظهر الدينار فى المركز شكل المدرج ينتهى بعمود له رأس كروية ، وعلى الهامش كتابات عربية بالخط الكوفى البسيط - من اليمين إلى اليسار - بسم الله ضرب هذا الدينار سنة أربع وسبعين .

ومن الملاحظ أن الدينار لم يشتمل على اسم الخليفة أو مكان الضرب ، ويظهر فى نقش هذا الدينار الخليفة يمسك فى يده اليمنى سيفاً وهو رمز الإمامة عند المسلمين وتظهر ملابس الخليفة فضفاضة خشنة ، ذات طيات متعددة دون أن تشف عن ساقيه ، ونجح الفنان الذى صور الخليفة عبد الملك فى إبراز الطابع العربى متمثلاً فى الملابس وإسدال الشعر واللحية وتقصير الشارب .

وقد ورد بالمصادر العربية أن هذه الدنانير قد وصلت إلى الحجاز حيث كان هناك الكثير من الصحابة الذين استحسنوا إزالة الشارات المسيحية من عليها ، ولكنهم عابوا على عبد الملك أنه تشبه بالأباطرة والأكاسرة ووضع صورته على وجه العملة ، وهكذا رفضت هذه المرحلة الرابعة من قبل البيزنطيين ، كما أنها لم ترق لبقية المسلمين .

٥- الدنانير الإسلامية الخالصة : كانت الدنانير التي ضربها الخليفة عبد الملك بن مروان وعليها صورته سبباً في نزاع حاد بينه وبين الإمبراطور جستنيان من ناحية ، ورفضت من أهل الحجاز من ناحية أخرى . ومن ثم قام الخليفة عبد الملك بضرب عملات جديدة سنة ٧٧ هجرية أزال من عليها كل الصور واقتصرت فقط على العبارات المقتبسة من القرآن وذلك على النحو التالي :

في مركز الوجه :

لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

هامش الوجه :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

مركز الظهر :

الله أحد الله

الصمد لم يلد

ولم يولد

هامش الظهر :

بسم الله ضرب هذا الدين سنة سبع وسبعين .

الدرهم : [لوحة ١١]

مر الدرهم الساساني بنفس مراحل تحويل الدينار تقريباً على النحو التالي :-

١- الدرهم الكسروي الخالص : على وجه الدرهم صورة نصفية لكسرى بوجه جانبي ، وعلى رأسه تاج مجنح وأمام وجهه اسمه وألقابه بالخط البهلوي ، وخلف رأسه عبارات دعائية ، وعلى هامش الوجه أربعة نجوم داخل أهله . وعلى الظهر الشعلة المقدسة ، يحرسها كاهنان مدججان بالسلاح ، وإلى اليمين كتابة تشير للمكان ، وإلى اليسار كتابة للتاريخ بالخط البهلوي .

٢- الدرهم المعرب : تمت هذه الدراهم الفضية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فضربت دراهم على نقش الكسروية تماماً ، لكنه زاد على الهامش في الوجه عبارات مثل بسم الله ، الحمد لله ، محمد رسول الله ، لا إله إلا الله . أما الظهر فبقى كما هو دون تغيير سواء في وجود الشعلة المقدسة أو الكاهنان المدججان بالسلاح أو الكتابات البهلوية .

٣- الدرهم الأموي : تم ذلك في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، والملاحظ أن الدراهم قد تغير وضع الوجه والظهر فيها ، فعلى الوجه في مركز الدرهم صورة الخليفة عبد الملك بن مروان ممسكاً بسيفه بيده اليمنى ، وكتب أمام وجهه بخط كوفي بسيط " بسم الله خليفة الله أمير المؤمنين " ، أما ظهر الدرهم فنقش عليه صورة كسرى الفرس في وضع جانبي وأمام وجهه كتب " ضرب هذا الدرهم سنة خمس وسبعين " ، وعلى الهامش الخارجي للظهر كتبت بالبسملة " بسم الله " ثم الشهادة " لا إله إلا الله وحده " ثم الرسالة المحمدية " محمد رسول الله " .

٤- الدرهم الإسلامي الخالص : ضرب الخليفة عبد الملك بن مروان دراهم عربية خالصة بعد أن عاب عليه أهل الحجاز تشببهه بالأكاسرة والأباطرة فضرب درهماً عربياً خالصاً على النحو التالي :-

مركز الوجه :

لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له

هامش الوجه :

بسم الله ضرب هذا الدرهم في دمشق سنة خمس وسبعين .

مركز الظهر :

الله أحد الله
الصمد لم يلد
ولم يولد

هامش الظهر :

محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

الفلس :

مر الفلس بعدة مراحل منذ أن كان بيزنطياً خالصاً إلى أن أصبح عربياً خالصاً على يد عبد الملك بن مروان ، فنجد الفلس البيزنطي منقوش على وجهه صور الأباطرة كما هي على الدينار بالشارات المسيحية على التاج أو عصي المطرانية . وعلى الظهر حرف M أو حرفي I+ B ، ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ظهرت على الفلوس كتابات عربية تفيد مكان الضرب مثل حمص ودمشق وطبرية وإيليا وقنسرين وغيرها ، وعلى الظهر كلمات (طيب - واف - جائز) وهي عبارات تفيد وفاء الوزن الشرعي لهذه الفلوس .

ولما ضرب الخليفة عبد الملك بن مروان دنانيره المصورة بصورته ، ضرب الدراهم بنفس الهيئة ، ثم الفلوس ذات الرسوم الآدمية ليحل محلها بعد ذلك عبارات الشهادة والرسالة المحمدية ، مضاف إليها اسم والي الذي ضربت الفلوس في عهده ومكان الضرب وسنة الضرب .

وبعد الإصلاح النقدي الذي قام به الخليفة عبد الملك بن مروان امتصت هذه العملات القديمة من الأسواق وأعيد صهرها تدريجياً وضربت بالصفة العربية الإسلامية الجديدة .

وظل الدينار الإسلامي ومضاعفاته وكسوره مستعملاً في جميع البلاد الإسلامية مع بعض الاختلاف في العبارات الواردة عليه .

وبهذا الإصلاح وضع عبد الملك الأساس الذي سارت عليه المسكوكات الإسلامية وإن اختلفت أشكالها ونوعية العبارات التي تكتب عليها وكذلك مكانها من دولة إسلامية إلى أخرى .

ففي العصر العباسي : ظهر اسم الخليفة على النقود الذهبية منذ عهد هارون الرشيد وتمتع الولاة في الأقاليم الإسلامية بحق ضرب الدنانير فظهرت أسماؤهم كذلك منذ سنة ١٧٠ هـ .

وفي عهد المأمون : أضيف هامش آخر إلى وجه الدينار كتب فيه " لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله " كما أكملت بعض العبارات المقتبسة من القرآن الكريم وأضيفت البسملة كاملة " بسم الله الرحمن الرحيم " ، وظهرت دار الضرب فظهرت مصر منذ ١٩٩ هـ .

وفي العصر الفاطمي : ظهرت العبارات الشيعية على الدينار وكتبت أحياناً في شكل دوائر على الوجه والظهر كما هو الحال في دينار باسم المعز .

الوجه :

الدائرة الأولى : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

الدائرة الثانية : وعلى أفضل الوصيين ووزير المرسلين .

الدائرة الثالثة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

الظهر :

الدائرة الأولى : بسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة .

الدائرة الثانية : دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد .

الدائرة الثالثة : المعز لدين الله أمير المؤمنين .

وقد تميز العصر الأيوبي بندرة الدينار الذهبية وبالتالي سادت الدراهم الفضية في التعامل [لوحة ١٢]، ويرجع ذلك إلى ظاهرة الاكتناز إذ لجأ البعض إلى الاحتفاظ بالنقود الذهبية الجيدة دون غيرها في ظل الأوضاع المضطربة إثر الحروب الصليبية ، وكذلك بسبب تسرب الذهب من البلاد خلال العمليات الحربية منذ أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي ، وكان يتم تداول الدراهم على أساس أن سعر الدينار الذهب يساوي ستة عشر درهما .

في العصر المملوكي : سادت شهادة التوحيد والرسالة المحمدية (لا اله الا الله محمد رسول الله) على النقود المملوكية ، بالإضافة الى اسم السلطان [لوحة ١٣] .

وفي أواخر العصر المملوكي الجركسي بمصر وخلال العصر العثماني ظهر الخلل في العملات المتداولة وكثرت مسمياتها . فقد تعرضت النقود لحالات كثيرة من عدم الاستقرار ، ورغم أن الذهب ظل حتى أوائل عصر المماليك أي في عهد البحرية هو قاعدة النقد وعلى أساسه قدرت وحدات النقد الأخرى إلا أنه خضع لتغييرات متعددة من حيث الوزن والعيار والحجم .

ورغم أنه حتى نهاية القرن ٨هـ / ١٤م ظل ضرب النقود أساسا بالذهب والفضة واحتفظت النقود الفضية بنسبة ثابتة من معدن الفضة النقي ١.٩٨٣ جرام وتراوح صرف الدينار الذهب من عشرين إلى ثلاثين درهما إلا أنه في نهاية هذا القرن وأوائل القرن ٩هـ / ١٥م حدث انهيار اقتصادي ، وظهرت أنواع من الدراهم الحموية الرديئة تزيد نسبة النحاس فيها عن المعدن الأصلي وصار الدرهم لا يحوي أكثر من ثلث وزنه فضة .

ويقابل هذا التناقص والانحطاط في مكانة النقود الفضية وانكماش مقاديرها ، ازدياد كميات النقود النحاسية في الأسواق كما نشطت حركة تهريب الفضة إلى دور السك الأوروبية .

وهكذا لم يعد هناك ثبات في أواخر عصر المماليك الجراكسة وظل الأمر مرتبطاً بالحاكم أو السلطان وكثرت أسماء العملات وغزت العملات الأوروبية الأسواق المصرية وهو ما أحدث أضراراً بليغة بالأحوال الاقتصادية للدولة وضعفت قواها الاقتصادية وتبعه ضعف في النواحي السياسية والعسكرية .

وفي العصر العثماني : كان من بين الأسس التي بنى عليها سليم الأول عدوانه على مصر ما تحتويه نقودها من شهادة للتوحيد والرسالة المحمدية ، فقد استفنى سليم الأول المفتي العثماني على جمالي أفندي في مسائل ثلاث يهمنها منها المسألة الثالثة " إذا كانت أمة (يقصد المماليك) تنافق في احتجاجها برفع كلمة الإسلام ، فتتقش آيات كريمة على الدينار والدراهم مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة من أهل الأهواء والنحل فيدنسوها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجاتهم ، فكيف ينبغي معاملته هذه الأمة " .

فأجاب المفتي بأن هذه الأمة إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار جاز إبادةها !!

وقد علق أحد المؤرخين على ذلك بقوله " إن فظاعة الجواب لا يضاهيها شيء سوى حماقة السؤال " .

ورغم أن العثمانيين أزالوا الدولة المملوكية وأزالوا نقودها ذات العبارات الدينية واستبدلوها بالألقاب الفخرية للسلطان العثماني مثل: ضارب النضر ، صاحب العز والنصر ، في البر والبحر أو سلطان البرين وخاقان البحرين [لوحة ١٤] ، إلا أنهم رغم هذا كله لم يأتوا بأية إصلاحات لأنظمة النقود بل إن قيم العملة أصبحت عرضة للتغيير المتتابع ، وتعددت أسماء

العملات بصورة كبيرة ومنها : الزنجري . زر محبوب بأنواعه " المصطفاوى والمحمودي والعدلية" وهي من الذهب ، والبشلك والتمشلك والأكلك والتلق والقرش وهي من الفضة ، والبارة من النحاس ،إلى جانب نقود أوروبية أخرى .